٢٠١٤

أدب

يونس
فى أحشاء الحوت

ياسر عبد اللطيف

(قصص)

الهيئة المصرية العامة للكتاب

يونس فى أحشاء الحوت

قصص

المشرف العام
د. أحمد مجاهد

اللجنة العليا
د. أحمد زكريا الشلق
د. أحمد شوقى
د. حسن طلب
أ. سامح فوزى
أ. صلاح عيسى
أ. طلعت الشايب
أ. عبلة الرويني
د. محمد بدوى مقرر
د. محمود عزب
د. مصطفى لبيب

تصميم الغلاف
وليد طاهر

الإشراف الفنى
على أبو الخير
صبرى عبد الواحد

تنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

يونس
فى أحشاء الحوت

«قصص»

ياسر عبد اللطيف

يونس فى أحشاء الحوت ـ «قصص»

عبد اللطيف، ياسر، ١٩٦٩ ـ ...
يونس فى أحشاء الحوت /ياسر عبد اللطيف. ـ القاهرة :
الهيئة المصرية العامة المصرية، ٢٠١٤.
١١٢ ص، ٢٠سم
تدمك ٤ـ ٨٠٥ـ ٤٤٨ـ ٩٧٧ـ ٩٧٨.
١ ـ القصص العربية.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٤/٥٣٩٥
I.S.B.N 978- 977- 448-805-4
ديوى ٨١٣

توطئة

مشروع له تاريخ

مشروع «القراءة للجميع» أى حلم توفير مكتبة لكل أسرة، سمعنا به أول مرة من رائدنا الكبير الراحل توفيق الحكيم.

وكان قد عبر عن ذلك فى حوار أجراه معه الكاتب الصحفى منير عامر فى مجلة «صباح الخير» مطلع ستينيات القرن الماضى، أى قبل خمسين عامًا من الآن.

كان الحكيم إذًا هو صاحب الحلم، وليس بوسع أحد آخر، أن يدعى غير ذلك.

وهو، جريًا على عادته الخلاقة فى مباشرة الأحلام، تمنى أن يأتى اليوم الذى يرى فيه جموعًا من الحمير النظيفة المطهمة، وهى تجر عربات الكارو الخشبية الصغيرة، تجوب الشوارع، وتتخذ مواقعها عند نواصى ميادين المحروسة، وباحات المدارس والجامعات، وهى محملة بالكتب الرائعة والميسورة، شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من حاملات الخضر وحبات الفاكهة.

ثم رحل الحكيم مكتفيا بحلمه.

وفى ثمانينيات القرن الماضى عاود شاعرنا الكبير الراحل صلاح عبد الصبور التذكير بهذا الحلم القديم، وفى التسعينيات من نفس القرن، تولى الدكتور سمير سرحان تنفيذه تحت رعاية السيدة زوجة الرئيس السابق. هكذا حظى المشروع بدعم مالى كبير، ساهمت فيه، ضمن من ساهم، جهات حكومية عدة، وخلال عقدين كاملين صدرت عنه مجموعة هائلة من الكتب، بينها مؤلفات ثمينة يجب أن نشكر كل من قاموا باختيارها، إلا أنه للحقيقة ليس

غير، حفل بكتب أخرى مراعاة لخاطر البعض، وترضية للآخر، ثم أن المشروع أنعش الكثير من متطلبات دور النشر، بل اصطنع بعضها أحيانًا.

وبعد ثورة ٢٥يناير والتغيرات التى طرأت توقفت كل الجهات الداعمة لهذا المشروع الثقافى عن الوفاء بأى دعم كانت تحمست له عبر عقدين ماضيين، سواء كان هذه الجهات من هنا، أم كانت من هناك.

ولم يكن أمام اللجنة إلا مضاعفة التدقيق فى كل عنوان تختار، وسيطر هاجس الإمكانات المحدودة التى أخبرتنا بها الهيئة فى كل آن.

والآن لم يبق إلا أن نقول بأن هذه اللجنة كانت وضعت لنفسها معيارًا موجزًا:

جودة الكتاب أولاً، ومدى تلبيته، أولاً أيضًا، لاحتياج قارئ شغوف بأن يعرف، ويستمتع، وأن ينمى إحساسه بالبشر، وبالعالم الذى يعيش فيه.

واللجنة لم تحد عن هذا المعيار أبدًا، لم تشغل نفسها لا بكاتب، ولا بدار نشر، ولا بأى نوع من أنواع الترضية أو الإنعاش، إن لم يكن بسبب التربية الحسنة، فهو بسبب من ضيق ذات اليد.

لقد انشغلنا طيلة الوقت بهذا القارئ الذى انشغل به قديمًا، مولانا الحكيم.

لا نزعم، طبعًا، أن اختياراتنا هى الأمثل، فاختيار كتاب تظنه جيدًا يعنى أنك تركت آخر هو الأفضل دائمًا، وهى مشكلة لن يكون لها من حل أبدًا. لماذا؟

لأنه ليس هناك أكثر من الكتب الرائعة، ميراث البشرية العظيم، والباقى.

إبراهيم أصلان

يونس في أحشاء الحوت

قصص

ياسر عبد اللطيف

حلم ليلة حرب

خرج الطلاب في الصباح الباكر إلى المدارس، في زحام كأنّه الخروج الكبير؛ خروج اليهود من مصر. المنازل جنة العسل واللبن، والمدارس بقسوتها صحراء سيناء اللاهبة. تدافع بالمناكب، راكبو دراجات وأغلبية من المشاة، وفي قلب المعمعة لمحتها، كانت تتعثر في عاهتها وفي خجلها منها؛ زهرة يانعة في الثالثة أو الرابعة عشرة على الأكثر، تظلع من عيب خلقي بساقها اليمنى أحالها إلى قصبة نحيلة ضامرة.

استبقتُ الخطى في الزحام نحوها، وهمست في أذنها: هل أساعدك؟ أجابت بكلام كثير لم أتبينه ثم تعلقت تلقائياً بكلتا يديها في ذراعي، فسرتُ بها وكأني أحملها. وفي الطريق إلى المدرسة ــ التي تصادف أنها كانت مدرستي أيضا ــ نَمَت بيننا عاطفةٌ لا أستطيع الآن تحديد كُنهها. مزيج عميق من الشفقة والعشق المثالي. كنت أكبرها بعامين أو نحو ذلك.

وفي المدرسة صرنا قصة غرام شائعة يتندر بغرابتها ومع شيء من الغبطة الطلبة الآخرون..

ربما لو كنت قد صادفت مثل ذلك الحب في صدر مراهقتي، لأُعفيت من الخوض في طرق مظلمة أسهمت في تخريب روحي.

وفي حلم آخر كنت أتخبط في ظلام خراب شاسع. الأرض سوداء من حريق هائل التهم أخضرها ويابسها، والأفق رمادي مع وميض يضوي ثم يخفت كبرق دون رعد.

تعرفت على جثتها المتفحمة بين الرماد من ساقها الضامرة..

أربع دراسات لضوء النهار

١- أسماءٌ سميتموها

كنت أقف بجوار حائط مطليّ بالجير الوردي تمت تغطيته بشبكة من شرائح خشبية رفيعة طليت باللون الأخضر. الشبكة الخشبية جُعلت لتسلق أفرع للّبلاب من المفترض أن تنطلق من حوض رخامي مملوء بالطين أسفل الحائط. كان الحوض مقفراً، وكانت الشبكة الخشبية هناك، عاريةً من وظيفتها، وكنت أصغر من أن أدرك هذه العلاقات المعقدة. كنت في الخامسة على الأكثر.

وجدتها واقفةً بجواري، زميلتي في روضة الأطفال، عايدة رائد راضي. كان أبوها يملك صيدليةً بجوار منزلنا، ومع ذلك اختفت من حياتي بعدها، وظللت أذكر اسمها هكذا، ثلاثيا، مرتبطاً بهذا الموقف فقط. كأن حضورها التاريخي قد جبَّه ومحاه حضورها اللّحظي في ذلك الموقف الغابر.

سألتها مستفسراً عن هذه الشبكة الخشبية: "إيه ده؟!"

قالت بثقة طفل في الخامسة: "ده الجزير."

أخذت كلامها مأخذ الجد. و لم أكن قد سمعت هذه الكلمة من قبل. و لم أسمعها أيضاً بعدها في عمري الذي امتد خمسة وثلاثين

عاماً أخرى. الآن، وبعد كل تلك الأعوام أفكر: "الجزير" مذكر لكلمة "جزيرة"، وهي وفقاً للمعاجم العربية واحدةُ جزائر البحر، وسميت بذلك لانقطاعها عن معظم الأرض. وهي اشتقاق من جَزَرَ بمعنى ذبح وقطع اللحم، فالجزيرة تتخذ اسمها من حيث هي "مقطوعة" عن جسد اليابسة. كذلك كان "الجزير" كما أسمته عايدة رائد راضي مقطوعاً عن عالم المعاني بانقطاع صلته بحوض اللبلاب الذي جف فيه الطين. كان مجرد جسم معلق على الحائط، أو بالأحرى، معلق في الهواء.

مع الزمن، تقل تدريجياً فرص اصطدام وعيُك بأشياء تجهل مغزى وجودها تمام الجهل كما رأيت تلك العريشة الخشبية في وضعها الرأسي ذلك النهار البعيد؛ ومع ذلك تحدث من آن لآخر. وفي كل مرة من تلك المرات النادرة، ستقفز إلى ذهني كلمة "جزير" كما خرجت من فمها، ويتردد في أذني اسمها ثلاثياً: عايدة رائد راضي.

٢- حدائق الحيوان بالجيزة

أحبُ هذا المكان منذ وعت عيناي الأماكن خارج جدران البيت. البوابة الرئيسية المُطلة على تمثال نهضة مصر؛ مدخل حجري بديع مُزين بمنحوتات جدارية لمناظر الصيد والطرد لدى الفراعنة.

لكي يدخل المرء عليه أن يشتري تذكرةً بقروش قليلة من نافذة بجانب المدخل، ثم ينفذ عبر باب حديدي دوَّار مطلي بالأخضر، وقد حال لونه من كثرة دفعه بالأيادي فظهر حديده صدئاً في مواضع وأملس مجلواً في مواضع أخرى. لن أنسى هذا الباب ما حييت.

المدخل الثاني بشارع الجيزة مماثل للمدخل الأول، وإن بجدارية فرعونية مختلفة. على الضفة الأخرى من شارع الجيزة بنايات مهيبة شديدة الأناقة تواجه سور الحديقة، مع صفّين من الكافور العملاق على الضفتين. الباب الثالث، باب الرحلات بنهاية السور في شارع الجيزة؛ مدخل حديدي بسيط بلا صروح حجرية يُفتح على مصراعيه لحافلات المدارس وطوابير التلاميذ.

أنزلتنا حافلة المدرسة يومها بشارع الجيزة عند مدخل الرحلات. كنت في نحو التاسعة، ولم تكن بالطبع زيارتي الأولى، جئت قبلها بصحبة أهلي خمس أو ست مرات. وقفنا صفاً تحت أشجار الكافور العملاقة نتطلع للبنايات في الجهة المقابلة، وقد تدلّت من الأيادي أكياسٌ بلا ستيكية تشف عن الشطائر وحبات الموز واليوسفي. طال انتظارنا ريثما ينهي مشرفو الرحلة إجراءات دخولنا. وشُحن الانتظار بدفقة غامرة من المتعة المرتقبة. ما زلت أذكر فلجةً بين أسنانها بدت عندً ابتسامها وهي تطوح كيس الطعام فرحاً. ما أروع أن نرى هذا العالم معاً !

٣- إدوار

هل كان المطر يهطل، أم كان فقط رذاذ موج البحر العالي المتطاير عبر الحوائط يغمر المكان؟ كانت السماء غائمة بالتأكيد. لم تمر سوى ست سنوات على هذه الذكرى، مع ذلك، غامت كالسماء وقتها.

كنا في الإسكندرية في مكان ربما يُدعى المكس، أو الورديان، أو الجمرك لا أذكر. كل ما أذكر أنه كانت هناك مبانٍ غريبة بارتفاع طابقين هي عنابر لتخزين القطن المخصص للتصدير، لها أبواب كبيرة بارتفاع المبنى تفتح بآلية الانزلاق من أعلى لأسفل أو العكس ليتدفق القطن نحو السفن أو الحاويات أو أي ما كان. أطلال باقية من زمن تصدير القطن المصري، وهي الآن خاوية تصفر الريح فيها. تُطل من جهة على البحر، ومن الجهة الأخرى على الشارع الذي كنا نقف فيه. نحن فريق عمل لفيلم تسجيلي عن الروائي السكندري إدوار الخرّاط. أنا كاتب السيناريو، والمحاور الرئيسي لإدوار محور الفيلم. لم يكن الخرّاط من كتابي المفضلين، لكني أقدمت على العمل في الفيلم نظراً لحاجتي الماسة للنقود في تلك الفترة، وكان هذا هو أفضل الحلول. وأنا أحب صناعة الأفلام التسجيلية على أي حال.

المخرج أيضاً سكندري، وهو من اختار هذا الموقع للتصوير. كان يريد أخذ لقطات موحية للخرّاط وهو يسير في أماكن تصلح

كخلفيات جمالية يطعم بها مادة الفيلم الحوارية بالأساس. كان رذاذ الأمواج يتطاير من خلف العنابر ونحن واقفون نُحَضِر للّقطة أنا والمخرج والمصور ومدير الإنتاج، وإدوار نفسه . قال المخرج للروائي الشيخ أن يأتي سائراً من عمق الشارع، على أن تواجهه الكاميرا الثابتة، بحيث تبدو العنابر على يمينه بينما هو يتقدم في الكادر قادما من بعيد تحت الرذاذ المتطاير. خلف المونيتور، بدا الخراط وقد جاوز الثمانين، بالشعر الأبيض على جانبي رأسه، وبمعطفه الأسود شيخاً شديد الوقار. وفي لحظة، بدت لي تلك المسيرة التي قطعها من نهاية الشارع لأوله بين أنقاض المخازن، تمثيلاً رمزياً لمسيرته الأدبية بكل حمولتها الرومانتيكية، اختزالاً جماليّاً لها في لقطة واحدة. كأنه لم يكتب "رامة والتنين" و"الزمن الآخر" و"يقين العطش" و"حجارة بوبيللو" وآلاف الصفحات إلا كي تلتقطه عدسةٌ بهذه الهيئة، وعلى هذه الخلفية.

وفي المونتاج النهائي، أسقط المخرج هذه اللقطة من جسم الفيلم.

٤- تحت شجر السرو

كانت تضع أمامها قفصاً من جريد النخل فرشت فوقه قطعةً من نسيج الخيش المبلل، وقد رصَّت عليه ربطات الجرجير والمقدونس

والكُراث والكزبرة الخضراء بين أعشاب أخرى.. منهمكة في غسل العروق الخضراء والأوراق في طست نحاسي مملوء بالماء أمامها على الأرض. كان الطست النحاسي غريب عن المشهد في مادته، كأنه آت من أفق فولكلوري أنيق لا يتسق ورثاثة المشهد، بتداخل بين ألوانٍ الصدأ الجتراري ومناطق تبرق بحمرة النحاس النارية. تغمر الحزمة في الماء وترفعها، ثم ترصها بنظام على الخيش المبلل. سألتها عن الطريق وأنا مأخوذٌ بمنظر قدميها في الخف البلاستيكي الرخيص. كانت قدماها أيضاً لا تنتميان للمشهد ولا للخف الرخيص الذي يحتويهما، كأنهما قدتا في اتساق من خشب ثمين داكن، كأنهما يقربان بشكل ما للطست النحاسي.

كانت تجلس تحت شجرة سرو، هي واحدة من صفٍ طويل يحجب سوراً لأبنية غارقة في نعاسها. بين صف السرو والسورٍ مسافة وقفت فيها عربات لباعة طماطم وبرتقال، وقد فكوا حميرهم لتجتر في الظل والذباب الكسول يغفو على عيونها، بينما راح الرجال في تدخين مستغرق.

في الجهة المقابلة من الطريق، كان هناك النهر، وكان هناك مرسى نهري لصنادل الشحن، تجاوره ساحة اصطفت بها أكوام من البطيخ على هيئة أهرام. مئات من تلك الكرات الخضراء تلمع تحت الشمس. وكانت هناك صيحات لبيع وشراء فيما يشبه المزايدات، كأنه سوق جملة للبطيخ. يفصلني عن المرسى والسوق عرض الطريق

الترابي. بين الفينة والأخرى تمر شاحنات عملاقة فتثير سُحباً كثيفةً من الغبار. وعلى الرغم من الأشجار الباسقة، والحضور الواثق للنهر، كان الغبار هو العنصر المسيطر لونياً على المشهد. عرض الطريق لا يزيد عن عشرين متراً إلا إن ضجيج السوق كان يصلني مشوشاً مقطعا، كأن الغبار قد خلخل الهواء في المسافة بيني وبينه.

أشارت بيدها نحو نهاية السور وقالت أن أنحرف يميناً هناك. ثم نظرت بتفرس في وجهي، وسألتني بابتسامة ساحرة: أنت طبيب أم مدرس؟ قلت لها مازحاً إنني طبيب بلا شهادة ولا عيادة. قالت وقد اتسعت ابتسامتها واستحالت ضحكةً صافية: "طيب اكتب لي علاج لوجع القلب".. ودَّعتها ومضيت مواصلاً طريقي، وفيما مرت شاحنة جديدة مثيرة سحابة أخرى من الغبار، سمعت صوتها بين الضجيج يقول في إثري:" مع السلامة ياولدي".

إحراز الهدف

كان محمود قد وصل قبل الموعد المحدد. وجدته منتظراً وعلامات نفاد الصبر بادية على وجهه وفي حركات جسده القلقة. انطلقنا لوجهتنا دون تبادل الكثير من الكلام، وقد عقدنا العزم على "إحراز الهدف" وفقاً لمصطلح تلك الأيام. تركنا حيّ المعادي خلفنا واتجهنا شَمالاً. قطعنا شارع "حسنين دسوقي" الصاخب وانزلقنا في حواري "الحدائق" التي تتمدد كالشقوق في تقاطعات أفقية ورأسية، حتى تلتحم مع أدغال "دار السلام" دون حدود إدارية أو جغرافية.

اهتدينا إلى البيت بصعوبة، بعد نحو ساعة من التيه في تلك الشبكة من الأزقة والبيوت المتماثلة. صعدنا للطابق الأول، وطرقنا الباب، فأطلّت علينا من الشُرّاعة فتاة جميلة شقراء، ظننّاها للوهلة الأولى أجنبية. قالت لنا إن "السقعان" غير موجود، وإنه لا بد عائد بعد ساعة أو نحو ذلك. لم تكن بيضاء بتلك الملامح التي تسم بعض بنات الدلتا والتي يسميها العامة "البياض الفلاحي"، كان شقارها أوروبياً يتعارض مع لهجتها السوقية وملابسها الرثة. همنا بالانصراف، فاستوقفتنا وسألتنا إن كنّا نملك نقوداً، وعندما أجبنا بالإيجاب رجتنا أن نشتريَ لها بعض طعام، موضحةً أنها لم تأكل شيئاً منذ يومين. وعندما رأت على وجوهنا علامات التساؤل قالت:

"أصل السقعان خاطفني وقافل عليا بالمفتاح من برة". لم نكن أنا ومحمود قد سمعنا مثل هذا الكلام من قبل؛ لكننا هبطنا بتلقائية شديدة، وبحثنا حتى وجدنا دكان بقال صغير، فاشترينا كيسًا من الخبز الإفرنجي وقطعةً معقولةً من الجبن الأبيض، نجحنا في تمريرها لها عبر قضبان الشراعة.

نزلنا مرة أخرى، وقد قررنا أن نرجع بعد ساعة ربما يكون السقعان قد عاد حسبما توقعت الفتاة المخطوفة. أخذنا نتسكع على غير هدى بتلك الأزقة الملتفة، حتى خفنا أن نفقد البيت مرةً أخرى، فجلسنا بأول مقهى صادفنا. كان المقهى مُقفرًا من الزبائن، وكان ذلك مريحا لنا، فطلبنا شايًا، وجلسنا نعد الدقائق. كانت وصلة الافتتاح بإذاعة أم كلثوم قد شارفت على الانتهاء، والسيدةُ تهبط باللحن لقرار شديد العمق بالتزامن مع هبوط المساء والحلول التدريجي للظلام خارج المقهى.

وجاءَ صاحب المقهى مدفوعًا بفضوله يَتقصَّى، وجلس معنا، كأنه صاحب مقهى "العقيل" في ملحمة "شفيقة ومتولي". "شكلكو مش من المنطقة"، قال، واستعمل كل حيل الكلام ليعرف ما الذي جاء بنا.. لم نُشف غليله واكتفينا بأن قلنا إننا جئنا لنزور صديقًا.. قال المعلم شكري، صاحب المقهى، إن هذه المنطقة المعروفة بـــ "الصواريخ" يُسيطر عليها بلدياته من البلينا - سوهاج، وإنها منطقة لا تدخلها الحكومة نظراً لأنها واقعة بين اختصاص قسمي "المعادي" و"البساتين".

تذكرت أن "مصطفى السقعان" كان قد أخبرنا أنه من سوهاج، لكننا لم ندل بأي معلومة إضافية، وجلسنا نستمع لثرثرات المعلم حتى شعرنا أن الوقت قد أزف، فحاسبنا صبي المقهى، بعد إلحاح، لردع إصرار المعلم "شكري" على إعفائنا من الحساب، وانصرفنا.

أسفرت الشُرَّاعة هذه المرة عن وجه السقعان الذي فتح لنا الباب مُرحباً بعد أن تعرف علينا في ظلمة السلم. كانت الفتاة هناك، جالسة حافية القدمين على حصيرة هي كل أثاث الحجرة، في حالة من الرضا والتسليم. وفي الطرف الآخر من الحجرة كان هناك رجل في نحو الأربعين بشعر غزير ووجه مدوَّر يعلوه شارب كث، وقد عكف على تقليب شيء في وعاء فوق موقد كيروسين احتل وشيشه الحجرة، بينما فاحت في جوها رائحة لا تطاق للطعام الذي يطهوه.

همس محمود في أذن السقعان بالمطلوب، فاختفى الأخير داخل الشقة ليعود به. رفع الرجل الطاهي وجهه نحونا بنظرة كارهة واستمر في تقليب الطعام، فيما تناولت الفتاة إبريقًا من البلاستيك الأحمر وأخذت تجرع منه الماء للحظات طوال، ثم حكت قدميها البيضاوين اللتين لا تنتميان للمكان في بعضهما، وعادت وتكومت في سكينة بجوار الحائط. وبقيت أنا ومحمود نتأمل جدران الحجرة المطلية بجير أخضر، تحت إضاءة خافتة لمصباح صغير لا تزيد قدرته عن أربعين وات وفي ظل وشيش الوابور ورائحة الطعام الكريهة، حتى عاد السقعان، فأنهينا الصفقة، وانصرفنا.

قطعنا طريق العودة في متاهة الحواري فيما يشبه العدو، وكان محمود يتساءل طوال الطريق عن سر الرائحة الكريهة للطعام، محاولاً إرجاعها لاستخدام الطاهي صاحب النظرات الشريرة لنوع رديء من الدهن، أو بصل وطماطم فاسدين. وظلّ محمود على تداعي أفكاره بخصوص الرائحة حتى بلغنا شارع "حسنين دسوقي". وسرعان ما قطعناه فأصبحنا مرة أخرى داخل نطاق المعادي. فقسّمنا الغنائم، ومضى كل منا إلى شأنه. كنا مساء الاثنين، وبالرغم من شهود اليوم لتوال متلاحق للمشاهد، إلا إنه كان بطعم يوم عطلة فاتر. وقد استسلمت للنوم هذه الليلة، في سريري وعلى وسادتي، لأستيقظ في ظهر الأربعاء. أما يوم الثلاثاء بطوله فقد تم حذفه جزئياً من شريط حياتي. أقول جُزئياً لأن بعض أحداثه قد وصلتني ـــ حكياً ـــ عن طريق الأصدقاء. قيل لي إني ذهبت يومها إلى الجامعة، وأني اشتبكت في نقاش حاد مع بعض زملائي بالمدرج كاد يصل إلى حد الشجار، لولا تدخل صديقي الأمين يوحنا الذي جرَّني من وسطهم إلى البوفيه حيث قضيت ردحاً من الزمن احتسي الشاي وأدخن وأتبادل الحديث مع فراش القسم. وقال لي صديق آخر إني تشاجرت بالفعل مع بائع الجرائد على باب الجامعة، وأني ركلت له كومة الكتب والمجلات المرصوصة في فرشة على الأرض. وبالتأكيد ثمة حماقات أكثر فداحة ارتكبتها دون أن يكون هناك شهود أعرفهم ليخبروني بها لاحقًا؛ لكني استيقظت في فراشي ظهر الأربعاء، غافلاً عن كل هذا، وأحاول فقط أن أعزل في مخيلتي بين صورة الفتاة الشقراء وبين رائحة الطعام الرديء التي كانت لا تزال عالقة في أنفي.

أمثولة الكلب الأبيض

قصة من زولوجيا المدن تصلح للرسوم المتحركة

لوسي كلبةٌ عاقر، تسكن حي المعادي. وربما كان للعقم أثر نفسي عظيم في سيكولوجيا الكلاب الضالة، فتركت لوسي حياة التجوال واختارت أن تقرَّ بجوار بيت عائلة البقلي على الأطراف الجنوبية للضاحية الهادئة. وارتضت أن تنسبَ نفسها لتلك العائلة دون أن يتبنّها أيّ من أفرادها تبنياً رسمياً، وبقيت على أعتابهم، هانئةً بما يلقونه إليها من فضلات طعامهم ورعايتهم. لم يؤثر العقم نهائياً على حياة لوسي الجنسية فكانت ترفع ذيلها عن طيب خاطر لأي عابر سبيل من ذكور المعادي الطلقاء، أو من متسللي حي طُرة القريب. وصارت لوسي مضرب الأمثال في سهولة المنال، وربما اتخذت ذلك الاسم ذا الرنين الشبقي من قابليتها الدائمة للنكاح، ومتى عنَّ لأي ذكر ساهر أن يقضي شهوته، أو يجد لنفسه تسليةً أفضل من النباح المجاني الذي يقطع القلب.

حين أقول الكلب الأبيض فأنا لا أعني إطلاق وصف بسيط كالبياض على كلب عادي؛ إنما الكلب الأبيض هو الكلب الأبيض بألف ولام التعريف لكلا الصفة والموصوف. وإن أردنا الدقة العلمية فهو كلب أمهق كامل البياض..

في إحدى الصدف النادرة التي يتوافق فيها التاريخ مع الطبيعة، هاجر الكلب الأبيض من حي طُرة الرهيب ذي الليمان والمحاجر ومعسكرات الأمن المركزي ومعهد أمناء الشرطة والبشر الذين نساهم الله، إلى حي المعادي الوادع بحدائقه وفيللاته الأنيقة وأشجارها الوارفة. وابن كلب على عكس ابن آدم، فبينما تغلظ طباع البشر في الأحياء الشعبية المكتظة، تتحول الكلاب فيها إلى كائنات رعديدة نتيجة للازدحام البشري، ولبطش السكان بها لا سيما الأطفال، فتستحيل الكلاب هناك إلى ما يشبه الطيور الداجنة أو الفئران المذعورة في بعض الأحيان. وقديماً قال العرب على الشخص الكريم كثير الضيوف: "فلان جبان الكلب". أي أنّ كلبه صار هيّاباً للبشر من كثرة احتكاكه بهم. أما في الأحياء الهادئة وبينما ترق طباع البشر، تستأسد الكلاب في الشوارع الهادئة على أيّ عابر مترجل، وتتوحش فارضةً سلطانها الوهمي على الفضاء، وتستعيد بعضاً من سيرتها الذئبية القديمة. وهو ما يلقى استحساناً من هؤلاء السكان الذين يندر أن يمر أحدهم دون سيارته الأنيقة، حيث بإمكانه من خلف زجاجها أن يداعب تلك الكائنات الجعجاعة بعطف مثقف أقرب إلى الزيف منه إلى الحقيقة .

ربما نظراً لبياضه الشاهق الذي تاه به غطرسةً على كلاب طُرة الجرباء وهو بعد جرو، توسم صديقنا في نفسه إمكانيات أكبر، فقرر الرحيل بحثاً عن فرصة أفضل للعيش، وعن مجتمع يناسب طاقاته

المتعطشة للحياة الكريمة. فكان كل ما فعله هو أن عبر الترعة الجافة التي تفصل الحيين المتجاورين عن بعضهما فصلاً طبقياً وحضارياً مُتعسفاً، وحط رحاله بمنطقة ثكنات المعادي، وبالتحديد بجوار مطعم "ماكدونالدز" للوجبات الجاهزة، حيث وفرت له مزبلته العامرة بأقراص الهامبورجر التي تم التخلص منها لاحتراقها الزائد على طاسة الشواء، وبكيلوجرامات البطاطس المقلية التي زادت عن حاجة الزبائن، وفقاعات كاتشاب "هايتز" الدموية مأدبة يومية حافلة. فشب عفّياً مفتول العضلات كوحشٍ أشقر. وسرعان ما ضرب برائحة بوله حزاماً أمنياً حول المنطقة، وأممَّ لنفسه رقعةً تزيد مساحتها عن كيلومترين مربعين، كل مزابلها تحت إمرته، وإناثها حلٌّ له أينما حل في تلك المملكة مترامية الأطراف. وكُنتُ كلما خرجتُ من مترلي للتريض أو لشراء السجائر وجدته راكباً فوق أنثى جديدة، وحوله جوقة من الكلاب الشابة التي توجته ملكاً عليها، تحرس له الجو حتى يفرغ من متعته. قدرتُ أن حريم الكلب الأبيض يفوق في عدده حريم السلطان عبد الحميد الثاني، بل وحريم الخليفة هارون الرشيد نفسه.

كانت عصابة الكلب الأبيض تظهر عند مطعم ماكدونالدز يومياً حوالي الثانية بعد منتصف الليل وهو موعد تفريغ المزابل. فكنت تستطيع أن تضبط ساعتك عليهم. يجيئون في ثقة يتقدمهم كبيرهم وذيولهم من الإثارة تتأرجح في الهواء. لكن الرياح لا تجري دائمًا بما تشتهي السفن.

في الجهة الأخرى من شريط المترو، بالتقريب عند نقطة مقابلة لمطعم ماكدونالدز، يقع مطعم أندريا الذي يحاكي مطعماً يونانياً عريقاً بمنطقة الأهرام متخصص في الدجاج المشوي على الفحم. الجهة الأخرى من شريط المترو أكثر هدوءًا من منطقة ماكدونالدز التي يكثر بها لغط المراهقين من زبائنه، مما يعني بالضرورة أن كلابها أكثر شراسة من زميلتها على الضفة الأخرى من المترو. ولأن ما يتبقى من الدجاج هو أنفع للكلاب وأبقى، فقد تكونت حول مطعم أندريا عصابةٌ ذات بأس من كلاب غرب المعادي، تزعَّمهم كلبٌ بلدي أغبر ضخم ذو أذنين مدببتين شديدتي الانتصاب، مما يعني أن أحد آبائه الأقربين كان من فصيلة الرعاة الألمانية المعروفة بالوولف بلاك جاكيت، بالتأكيد خرج ذات مرة من بوابة إحدى هاتيك الفيللات فترى بكلبةٍ بلدية، وكان من ثمار تلك النزوة ذلك الزعيم المهجن. وعلى الإيقاع اليومي لشواء الدجاج على الفحم نما وترعرع مستفيداً من كل العظام والنخاعات، وكما هي العادة استقطب لصفه صفوةً من شباب كلاب المنطقة.

لم يستطع مطعم أندريا بطابعه النوستالجي أن يصمدَ طويلاً أمام زحف مطاعم الوجبات الجاهزة الأمريكية التي غزت الضفة الأخري، فمن "ماكدونالدز" إلى "بيتزا هت" إلى "تكا" إلى "دجاج كنتاكي"، امتلأ شارع ٩ بزبائن العصر الحديث، بينما بقى أندريا معتمدًا على بعض الزبائن العجائز ممن يحنون إلى أزمنة الوداعة والمذاق

الأصلي. ولأن صاحب أندريا لا يملك توكيلاً من شركة عابرة للقارات فقد أشهر إفلاسه وأُغلِق المطعم في مشهد حزين دال. وحلّت الطامة الكبرى بعصابة غرب المعادي؛ فانبرى كبيرهم الذي علمهم السحر وقال نابحاً ما معناه: "لا مفر من اللحاق بقطار العولمة.."

وقد شهدنا لحظة الإنزال. كنت وصديقي واقفين ندخن ونتحدث أمام باب بيتي الذي يقع على مرمى حجر من مطعم ماكدونالدز حين رأينا عصابة الأغبر تهبط سلالم الكوبري العلوي الذي يربط بين ضفتي المترو، وكلها تصميم. كانت رادارات عصابة الكلب الأبيض الشمية والسمعية قد استشعرت الخطر المقترب، ووقفت في وضع التأهب حتى قبل أن تظهر العصابة الأخرى على رأس الكوبري. بمجرد هبوطهم إلى أرض شارع ٩ تقدم لهم مزمجراً من عصابة الأبيض شاب متوسط الحجم فتجاهلوه في غير اكتراث واتجهوا رأسًا كذئاب والغة نحو الزعيم. شلت المفاجأة عصابة شارع ٩ فوقفوا وأذنابهم بين أفخاذهم يتفرجون على الزعيم بينما العصابة الأخرى تُعمِلُ أنيابها ومخالبها بكل ضراوة في جسده الأبيض الجميل، وعلت في الجو عواءات البطش ونباحات الألم في معركة دامية استمرت لدقائق طوال وقف خلالها شارع ٩ على قدم واحدة. بالكاد حيًّا خرج الأبيض من المعركة، واختفى من على مسرح شارع ٩ منسحباً في ذلّ المهزومين. وتفرق أفراد عصابته، فمنهم من لقى

حتفه تحت عجلات المترو، ومنهم من قبع ينتظر الموت في الترعة الجافة بين طرة والمعادي، والتحق حسنو الحظ منهم بعصابات أخرى وتحت إمرة زعماء آخرين.

أما الكلب الأبيض فقد سار مترنحاً مثخناً بجراحه. سار طويلاً حتى كاد أن يسقط ميتًا، وهنا تذكر لوسي التي طالما أنف من مضاجعتها أيام عزه، وذهب دون كبير أمل في الحياة إلى رحابها ليستريح. تلقفته لوسي عبر باب حنانها الواسع وقبعت بجواره تلعق جراحه الغائرة علها تطيب.

وبقى من يومها صديقنا ولوسي زوجين متقاعدين وإذا رأيته وقد انكسرت شوكته لتذكرت مُجرماً قديماً فتحت له الحكومة بعد خروجه من السجن كشكاً للسجائر.

أروى على الهواء

المعادي، شتاء ١٩٨٥ - كلبٌ ضال

أُصيب أخي الصغير هشام بداء"الصياعة المبكرة" وهو بعد في الصف الأول الإعدادي، أي في الثانية عشرة على الأكثر. وكنا، على الرغم من أني أكبره بسنوات ثلاثة، أي أنني كنت وقتها في الصف الأول الثانوي، متزاملين في المدرسة نفسها؛ فقد كانت مدرستنا من النوع المؤبد، تدخلها في الرابعة، ولا تخرج منها سوى في السابعة عشرة. ومن دلائل داء أخي الذي استجد عليه، أن صار يخرج للمدرسة مبكراً، أي قبل موعدها بساعتين. كان الجرس يضرب في الثامنة والربع، بينما يكون هشام قد خرج منذ السادسة صباحاً.

وبالتقصي، اكتشفنا ما وراء الموضوع. لقد تصاحب هشام مع كلب ضال يخرج من أجله مبكراً. ما إن يهل خارجاً من البيت حتى يستقبله الصديق الجديد بهز للذيل لا يتوقف، فيداعبه هشام وينطلق في طريقه، ويتبعه الصديق متقافزاً من السعادة حتى المدرسة التي تبعد قرابة الثلاثة كيلومترات عن البيت.

من نتائج هذه المرحلة، أني عرفت على لسان هشام خبراً مثيراً: أنه لم يكن أول المتواجدين في المدرسة، ولا ثانيهم بعد خفير الحراسة المقيم، ولا ثالثهم بعد الفراش، لكنه كان الرابع في الترتيب بالرغم من

وصوله في السادسة والنصف؛ فقد كان هناك من يسبقه من التلاميذ، وأعني هنا "أروى" من الصف الثاني الثانوي. ولم أكن لأعرف خبر اعتياد أروى الوصول في مثل هذه الساعة بغير صداقة أخي الغريبة مع الكلب الضال، التي قادته إلى الاستيقاظ والذهاب مبكراً إلى المدرسة، والتي ما لبث أن نسيها بعد أن ملَّ من الكلب وصحبته، أو ملَّ منه الكلب، فعاد إلى كسله القديم.

"الأروى" هو نوع من الظباء التي كانت تعيش في الجزيرة العربية. وبالرغم من أن العرب لم تكن لديهم العادة في إطلاق أسماء مثل هذه الحيوانات المسالمة على أبنائهم الذكور، وكانوا يحتفظون بها للإناث، أملاً في أن تُحمَّل في المستقبل باستعارات مكنية عن عينين نجلاوين أو قوام رشيق، فقد اختار الأستاذ فتحي الشناوي موجّه أول اللغة العربية بإدارة مصر القديمة التعليمية هذا الاسم الذي استخرجه من بطون الكتب الصفراء لولده الوحيد، الذي تيتم بفقدان الأم في سن مبكرة، حتى قبل أن نعرفه. ويجب هنا أن أقول إن أروى كان يكبرني بعام دراسي. وأنه كان قبل حكاية هشام مجرد طيف يعبر كالشبح في المشهد المدرسي اليومي فلا تلتفت إليه، بل ربما كنت تجده طالباً مملاً من شدة انضباطه. فقد كنا في أواسط الثمانينيات، وكانت الحقائب المدرسية تتجه نحو الطرز الرياضية أو نحو حقائب الظهر المجلوبة من صرعات الرحالة المتخففين، بأقمشتها الصناعية الملونة. وكنا نتحايل على الزي المدرسي الصارم بارتداء بنطلونات

الجيتر العملية. إلا أروى، فقد كان متمسكاً بحقيبة جلدية من طراز "المنفاخ" التي شاع استخدامها في أوساط المحامين ومن لف لفهم قبل ظهور السامسونايت المقوى. وبالزي المدرسي كاملاً: بنطلون رمادي من الصوف الثقيل، وقميص أبيض، وجورب من نفس اللون وحذاء من الجلد الأسود اللامع. وهكذا، وبعد هذه القصة انتبهت لأروى. صرت أتابعه في الطابور، وفي أوقات الفسحة، وأراه بعين خيالي في الساعات التي تسبق الجرس، واقفاً تحت شجرة الكافور العملاقة في فناء المدرسة وحيداً بملابسه الكاملة وحذائه اللامع، بينما يقذف أخي لصديقه في جانب من الفناء بكرة تنس مطاطية، فيركض الآخر ليعود إليه بها .

الجيزة، خريف ١٩٨٧- شطرنج

التحقت بكلية الآداب - جامعة القاهرة وحيداً من بين أبناء دفعتي في الثانوية الذين انتظموا في كليات عسكرية أو عملية بحثاً عن مستقبل مضمون. وفي الأيام الأولى من الدراسة الجامعية يكون المرء تائهاً بين الأعداد الهائلة من الطلاب الذين يجهلهم، فيدور بين الزحام باحثاً عن وجه يعرفه. كان لكل شيء مهابة وجلال يدعوانك للتضاؤل: الأبنية العظيمة بعقودها وأعمدتها الحجرية ودرجاتها الرخامية التي تخيلت طه حسين نفسه واقفاً ـــ ويالللغرابة ـــ بنظارته السوداء ليشرف على تشييدها كمعماري محنك. كان لجامعة القاهرة

وكلية الآداب معنى رمزي يتجاوز حجمها الحقيقي، وكنت أصغر من أن أدرك ذلك. كنتُ سعيداً بحرية التدخين داخل الأبنية التعليمية، وهو ما كان محظوراً علينا بشدة في المدرسة؛ كذلك بحرية المجيء والذهاب في أي وقت، ومع ذلك كنت أشعر بوحدةٍ أشبه بالضياع الوجودي.

في إحدى جولاتي الحائرة، في أيامي الأولى بالجامعة، إذا بالزحام الأعمى ينشق عن أروى جالساً على إحدى أرائك حديقة الكلية مع صديق له تتوسطهما رقعة شطرنج. وفي حال مثل حالي تكون مصادفة شخص مثله، يشاطرني ـــ ولو من بعيد ـــ أي نوع من المعرفة، أشبه بقشة لغريق. قدمني لصديقه "نبيل" باعتباري صديقاً قديماً من أيام المدرسة. ومن اللحظة الأولى تبادلت ونبيل النفور. كان شاباً به الكثير من سمات المتزمتين: جبهة ضيقة يكاد مفرق شعره ينطبق فيها على حاجبيه، وكفان عريضتان على أذرع نحيلة تخرجان من أكمام قميصه وقد زررها في وقت جوه معتدل. ومن جيب قميصه برز قلم حبر جاف من الطراز الذي كنا نسميه في المدارس"قلم فرنساوي". تركتهما يكملان مباراة الشطرنج وجلست أتابعها، وأخرجت سيجارةً وهممت بإشعالها، فسألني نبيل مستنكراً: " انت بتدخن؟" اجبته بوقاحة وأنا انفث دخان النفس الأول بحنكة من واظب على التدخين منذ الإعدادية: "يعني".

لم أكن من هواة الشطرنج، وإن كنت أعرف قواعد اللعبة منذ تعلمتها طفلاً. وبسهولة لاحظت أنهما ــ رغم انهماكهما ــ ليسا من محترفيها. وعليه فقد دخلت منافساً ثالثاً ألاعب من يغلب منهما. ووجدت أننا في مستويات متقاربة، أقرب إلى الضعف منها إلى القوة. ولأيام صرت أعرف طريقي في الكلية نحو أروى ونبيل فنقضي بضع ساعات في مبارزات شطرنجية متكافئة، أخرج مرة غالباً ومرة مغلوباً. واختلافي الوحيد عنهما هو أنني كنت أدرك أن الشطرنج بالنسبة لي مسألة تضييع وقت، لكنه بالنسبة لهما كان قضية حياة.

وفي إحدى المباريات، وعن طريق الصدفة وحدها، نقلت حصاني بحركة غير متوقعة، فإذا به في مركز مربع على زواياه قطع أربعة لنبيل هي الملك والوزير وطابيتان. وحصاني بحركته اللامية يهدد كل منها في مقتل. وقف أروى يصفق ويصرخ من الدهشة: "كشة رباعية" . كان على نبيل كي ينقذ ملكه أن يضحي بوزيره. لاحظت بعد برهة أن الفخ لم يكن محكماً، وأن حصاني كان مهدداً من قبل فيل بعيد، لكن مفاجأة "الكشة الرباعية" كانت أعمت نبيل وأروى من خلفه عنه.

وسرعان ما تعرفت إلى طالبة بقسم اللغة الفرنسية من حي "شبرا" تولت عن أروى وصديقه مهمة ادماجي في العالم الجديد. كانت الفتاة مزيجاً رائعاً من تلميذة المدارس الفرنسية وبنت البلد، لا تعرف أيهما ترتدي ثياب الأخرى؛ فصرت ملازماً لها، ونسيت

بسببها أروى ونبيل فعادا إلى الزحام الأعمى الذي جاءا منه. ونسيت كذلك الشطرنج الذي لم أعد إلى لعبه من أيامها.

ماسبيرو، صيف ١٩٩٨ـ لغة المالايو

أربع سنوات من البطالة قضيتها بعد تخرجي من الجامعة في التسكع والتنقل بين المقاهي وحلقات الكلام التي لا تنتهي. لم أكن أبحث عن وظيفة بشكل جاد، وإن كنت أتسبب أحياناً بأعمال مؤقتة تدرُّ أقداراً من المال تكفي لاحتياجات التسكع. فمن ترجمة بالقطعة هنا، لصحافة بالقطعة هناك، مرة كل بضعة أشهر، كنت راضياً عن نفسي. وكان أبي يجيب متحسراً على من يسأله عن طبيعة عملي فيقول: "أهوه بيجيب سجايره". إلى أن افتتحت الدولة باقةً من القنوات الفضائية في تلفزيونها الحكومي، فالتحقت بالعمل فيها مع بضعة آلاف من أبناء دفعتي والدفعات القريبة منها. مُعد برامج باتحاد الإذاعة والتلفزيون - وزارة الإعلام، هكذا كانت تصفني بطاقة العمل الجديد التي وضعت حدا للريبة التي كان يقابلني بها رجال الشرطة ضبّاطاً وأمناء في نقاط التفتيش الليلية حينما يجدون بخانة العمل في بطاقتي الشخصية: حاصل على ليسانس آداب. صرتُ إذن موظفاً بالدولة، وفي وزارة سيادية لا تقل أهمية عن الداخلية والدفاع.

مبنى "الإذاعة والتليفزيون" بكورنيش النيل – ماسبيرو، هو أحد أهم صروح الدولة المصرية كما تصورها رجال يوليو ٥٢، بناء هائل يتسع لخمسة وثلاثين ألف موظف. عشر طوابق للمبنى الدائري الأسفل ثم ١٧ آخرين فوقهم للبرج الذي يتوسطه. ومع التوسع، التهم المبنى الدائري بعض الشوارع الخلفية بحي بولاق ليمتد له جناحان مستطيلان بارتفاع العشر طوابق ذاتها. في أشهري الأولى بالعمل، كنت أسير مُستكشفاً الممرات والدهاليز الثعبانية للمبنى بنشوة غريبة. يخامرني شعور قوي أني أتمشى في أحشاء الدولة، في أمعائها. وأنخرف داخلاً في ممرات أضيق هي الشرايين ..ثم الأوردة.. ثم الشعيرات الدموية.. تطالعني أمم من الموظفين لا أعرف لهم عملاً.. مكاتب غاصة بالبشر وأخرى خاوية.. طرقات وغرف فاخرة ومكيفة وأخرى متقشفة بأطلية رمادية وإضاءة نيون على طراز المصالح الحكومية العادية. وأسير.. وأسير.. كيلومترات طوال داخل المبنى بالنشوة ذاتها.. نعم، أنا في قلب الدولة النابض.

في مرة، كنت أسير في أحد الأدوار المخصصة للإذاعة عندما قابلته مجدداً وبعد سنوات طوال، أروى بشحمه ولحمه وإن اشتعل رأسه شيبا. كان لا يزال في نهاية العشرينيات. هذه المرة كان معه رجلاً في حدود الخمسين بملامح آسيوية سمراء وطاقية كطاقية سوكارنو. قدمه أروى لي على أنه الأستاذ سراج زميلهم من قسم "الملايو". لم أفهم، وسألت أروى عن عمله في الإذاعة. فقال أروى

إنهم يعملون فيما يعرف بـــ"الإذاعات الموجهة"، وهي محطات تُبث على الموجات القصيرة وتستهدف مناطق بعيدة من العالم تذيع لسكانها الأخبار من وجهة نظر الحكومة المصرية بلغاتهم المحلية..وهو قسم بالإذاعة باقٍ بالقصور الذاتي من العهد الناصري وزمن عدم الانحياز وتضامن الشعوب الأفرو آسيوية.. وأوضح أروى إنه يعمل قارئاً للنشرة في المحطة الموجّهة لدول غرب أفريقيا الناطقة بالفرنسية، بينما يعمل الأستاذ سراج ـــ وهو ماليزي الجنسية يقيم في القاهرة منذ ثلاثين سنة ـــ في المحطة الموجّهة لجنوب شرق آسيا الناطق بلغة المالايو. وأضاف أروى تعليقاً صغيراً: "المشكلة إن الموجات القصيرة في العصر الحالي صارت ضعيفة لاتصل إلى المناطق المستهدفة". سألته مستوضحاً عن معنى ذلك، فرد الأستاذ سراج بابتسامة لطيفة وعربيةٍ ملحونة: " باختصار هنو نتكلمو ولا أَحَدا يسمؤنا".

اعتذر أروى عن البقاء معي أطول من ذلك لأنه لا بد أن يُسرع للّحاق بالاستوديو حيث لديه نشرة على الهواء حالاً.. فتركني مع الأستاذ سراج، وانطلق متأبطاً حزمة من الأوراق.. وسمعت دقات حذائه تتابع أصداؤها بينما هو يبتعد راكضاً في عمق الدهليز.

لقاءات قريبة من النوع الرابع

التقيت بها بعد واحد وعشرين عاماً كاملةً، كانت هيئتها قد تبدّلت تماماً، لم يتبق شيئٌ من تلك الفتاة التي عرفتها سوى لمعة بعينيها ظهرت وهي تذكرني بنبؤها القديمة، تلك التي أطلقتها ونحن جلوس في حديقة شبه خاوية منذ عقدين وعام. أما عني فقد كنت رجلاً تجاوز الأربعين تزوج مرتين متعاقبتين وانجب ولداً في الزيجة الثانية واستقر به الحال مُحرراً للأخبار في وكالة للأنباء. أعمل في وردية الليل من منتصف الليل وحتى الثامنة صباحاً، وكنت خارجاً من العمل صباحاً إذ وجدتها أمامي مرةً أخرى بعد كل تلك الأعوام، جالسةً تحتسي القهوة بأحد مقاهي شارع الدقي.

عرفتها بزمنٍ كنتُ فيه بصدد تكوين وجهة نظر في الحياة، بعد اكتشاف عالم جديد من القراءات والأفكار. وكنت أشعر بروحي تنمو بإطراد، يوماً بعد يوم. فصممت على إقامة علاقة معها، وبداخلي ذلك التوق إلى خوض تجربة عنيفة، وكأن ذلك سيعمق من خبرتي في الحياة. وعلى الرغم من مخالفتها لذوقي بشكل تام، إذ لم تكن صفاتها الروحية أو الفيزيقية مما يثير إعجابي في الأحوال العادية؛ وجدتني منجذباً إليها وفقاً لدوافع غامضة، وبشكلٍ لايقاوم.

في ذلك اللقاء البعيد، كنا جالسين داخل حرم جامعة القاهرة في ركن قصي معروف، يؤمه العشاق، يجاور قسم "الحشرات" بكلية العلوم. كنت على وشك التخرج من الجامعة أما هي فكانت قد تخرجت بالفعل، وتأتي للجامعة في سياق محاضرات تمهيدية للدراسات العليا. كنا جادين للغاية، وكنا نُكثرُ من استخدام كلمات كالروح، والنمو، والتجاوز. حكيت لها عن "سيد هارتا" ووعدتها باهدائها نسخة من الرواية في ترجمة فؤاد كامل عبد العزيز. نُراوح بين الكلام في أمور شديدة التجريد إلى أحاسيس جنسية متأججة بسلاسة لا أستطيع ان أفهمها الآن. لم يكن مفهوم الحب قد طرح بيننا، كنا ربما نتقارب في إطار تزامل روحي في عالم الأدب والأفكار العظيمة. نسيت أن أقول إنّ كلينا كان يكتب الشعر.

كان الجو بهذه المنطقة من جامعة القاهرة شديد الهدوء يعود بك إلى أزمنة تأسيس الجامعة الأولى، تلك المنطقة البعيدة عن صخب الكليات المزدحمة كالآداب والحقوق والتجارة. جالسين كنا على درج رخامي لأحد هذه المباني الجامعية الخاوية نستمع لصوت الصمت وتخرج منا الكلمات على فترات متباعدة، فيما تتلامس يدانا بشوق ورغبة محتدمة؛ عندما فجأة نظرت إلى فرع ضخم متدل من شجرة تين بنغالية وقالت: "لو يدخل فيَّ هذا الفرع بكامله!!"

صدمتني الجرأة التي أخرجت بها هذه الكلمات، وشعرت بنوع من المهانة إذ إنني لم أكن مقصوداً في حد ذاتي بالرغبة، أو لم أكن

بالضرورة موضوعاً لها، سوى أن ساقتني الأقدار إلى هذا الموضع في تلك اللحظة.

عرفتها لأول مرة بوصفها صديقةً لمسعود زميلي بالقسم، وسألتها عنه يومها، فقالت إنها لم تعد تراه منذ ستة أشهر. وقالت لي إنه اصطحبها مرةً لزيارة صديقه عبد الحميد الذي يقيم بمفرده. وكان غرض مسعود من اصطحابها إلى هناك هو أن يستغل شقة عبد الحميد الخالية من الأهل فينام معها هناك، بعد أن يفهمه "بصنعة لطافة" أن يترك لهما المكان. لكن ما حدث أن عبد الحميد لم يخرج، وكان مسعود هو من غادر المكان. قالت إنه بعد دقائق من وصولهما نشأت "كيمياء" فورية بينها وبين صاحبه، تطورت إلى ملامسات جسدية مباشرة على مرأى ومسمع من مسعود الذي لم يجد بُداً من الانسحاب كجنتلمان مهزوم. وقالت إنها لم تعُد تراه من يومها، ولم تهتم. وقالت إنها خلال الستة أشهر تلك لم تخرج من سرير عبد الحميد.. حتى جاء يوم زهد فيها، وأخبرها أنه لا يريد أن يراها ثانيةً.

هل كان لاندياحها الجنسي علاقة بذلك العالم الموازي الذي أطلعتني عليه؟

بدأت معي بحكاية أختها طالبة العلوم، فتاة المعمل ذات النظارة السميكة والشعر المجعد. التي ارتبطت ـــ حسبما قالت ـــ بزميل لها، واكتشفت إنه كذلك، أي "مخاوي"!

لم أفهم. فقالت أي أنّ له علاقة بعالم الجن!

أبديت اندهاشي من أنّ طلبةً بكلية العلوم من المفترض أنهم ذوو عقليات علمية يؤمنون بمثل هذه الخزعبلات. فقالت إني أسميها خزعبلات لأني لا أعرف هذا العالم، وطالما أني أرفض وجوده فهو سيمتنع عليّ.

قلت لها: وكيف إذن نعرف هؤلاء الناس، أقصد المخاوين؟

قالت إن لهم ملامح شكلية واضحة، تبدو أعينهم وكأنها من زجاج وشعورهم جافة كأنها ميتة.

فكرت أنّ هناك شيئا يربط بين ما تحكيه وبين الملامح التي كان أهل العصور الوسطى في أوروبا يتصيدون النساء على أساسها باعتبارهن من الساحرات؛ وهي الملامح التي اتضح فيما بعد أنّها صفات تشريحية شبه عامة لدى مرضى السكيزوفرينيا.

أخَذَت تنكش تراب الحديقة تحت أقدامنا بغصن شجرة صغير في يدها. ترسم مربعات متداخلة على الأرض وترص داخلها قطعاً من الحصى وأوراق شجرٍ جافة، ثم أخرجت من حقيبتها التي هي أشبه بجراب قماشي مجموعة من أوراق اللعب جديدة تلمع اوراقها، وقدمتها لي وقالت ان أسحب كارتاً. سحبت ورقة عشوائية من بينها فخرجت السبعة السباتي حمراء صريحةً. فرفعت رأسها نحوي وقالت بلمعة عينيها ذاتها وابتسامة غامضة: ستقابل واحدة منهن كل سبع

سنوات على مدار الأعوام القادمة، لكنك لن تلحظ في وقتها لأن قلبك مقفول كقلب السباتي.

كنت على استعداد لأن أسمع أي نوع من الكلام منها طالما ستسير العلاقة في الخطة الغرائبية التي كنت أحدسها وأسعى إليها. وبالفعل دخلت معها في دوامة استمرت عاماً كاملاً، ثم افترقنا. وكعادتها لم تعد تراني ثانيةً ولم تهتم، وأنا كذلك. حتى رأيتها أخيراً وأنا في الثانية والأربعين.

في الحادية والعشرين..

لا بد أن من درس بكلية الآداب، جامعة القاهرة في نهاية الثمانينيات سيذكرها، بشعرها البني القصير وملابسها التي لا تتبدل: تنورة متوسطة الطول، وقميص بنصف كم تضيف عليه في الشتاء كترة صوفية مفتوحة. كانت تدرس بقسم الاجتماع أو اللغة العربية. شعرها البني القصير يبدو جافاً.. ميتاً، يميل إلى صفرة مرعبة في بعض المواضع. تسير بخطى بطيئة للغاية وفي خط مائل. تُحرك قدماً ثم تضم إليها القدم الأخرى في حركة مرتعشة. باختصار يمكنك أن تصنفها تحت عصاب الكتاتونيا التشنجي وأنت مُطمئن.

وكانت أمها تأتي بها صباحاً عند القدوم حتى باب المدرج، ثم تغيب طوال النهار ونراها مرةً ثانية في نهاية اليوم لاصطحابها في

الانصراف. السيدة تُماثلها في الصفات الفيزيقية من حيث الشعر ولون البشرة ونوعية الملابس وحتى في الارتعاش الكتاتوني. وكنا نراها ــ الأم ــ في بعض الأحيان بمنتصف اليوم تسير بمفردها في حدائق الجامعة المترامية، مما يشير إلى أنها لم تكن تنصرف ثم تعود لتأخذ ابنتها، وإنما كانت تنتظرها طوال الوقت. تتمشى بالمشية المتشنجة ذاتها، تذرع الطرقات بين الحدائق لساعات. وقد اعتدنا ذلك حتى أنه لم يعد مُدهشاً وصارت المرأة وابنتها جزءًا من الديكور اليومي للجامعة.

ثم كان يوم قابلت الفتاة واقفةً لدى كابينة التليفون بجوار مدخل الكلية. كان النهار في نهايته والشمس تختفي ببطء خلف القبة النحاسية وبرج الساعة. كانت تمسك في يدها بورقة نقدية من فئة الخمسة وعشرين قرشاً، وتهتز رأسها اهتزازات خفيفة متتابعة وفقاً لإيقاع تشنجها المقيم. فهمت أنّها تريد أن تفك الورقة النقدية بعملات فضية حتى تستطيع استخدام التليفون. فأخرجتُ عملةً من فئة العشرة قروش من جيبي وأعطيتها لها. فاستمرت رأسها في الاهتزاز ولم أعرف إن كانت شكرتني أم لا. وكانت في يدها أيضاً ورقة صغيرة مهترئة بها الرقم الذي تريد الاتصال به. وبعد لحظة اكتشفت أنها قد لا تستطيع أن تطلب الرقم لعجز في أصابعها من الارتعاش، فأخذت الورقة منها وطلبت لها الرقم بنفسي حتى جاءني الجرس فأعطيتها السماعة. وسمعت صوتها للمرة الأولى، وكان

واضحاً لا رعشة فيه، وإن كان يأتي من منطقة عجز؛ قالت لمن رد عليها: "خلّصنا.. تعالي خذيني"

أنهت المكالمة، ووجدتني لا أزال واقفاً بجوارها وبي رغبة في أن أفتح معها أي حوار. سألتها: هل كنت تكلمين والدتك؟

قالت: لا

سألتها ثانيةً: أعني السيدة التي تأتي لتاخذك كل يوم..

قالت: هي ليست أمي هي جارتنا!

لا أدري لم انتابني ذلك الرعب الداخلي إذ سمعت كلماتها، حتى إن خيطاً من العرق قد سال بطول ظهري.

في الثامنة والعشرين..

اتصل بي شريف مُبكراً على غير العادة، في الثامنة صباحاً. كدتُ أن أسبَّ له الدين؛ إلا إنه باغتني بصوت متحمس: أريدك في مشوار هام ولن تندم. تحممت وارتديت ملابسي وقابلته، فانطلقنا من المعادي حتى أطراف مصر الجديدة في رحلة استغرقت نحو ساعة كاملة. عرفت أثناء الطريق إننا ذاهبان لنوّصل مبلغاً من المال إلى سيدة هي أرملة جده. كانت زوجته الثانية بعد وفاة جدة شريف. تزوجها على الرغم من تذمر ابنائه، امرأة عانس من غير طبقتهم التي

تنتسب للأصول التركية. جاء بها من حي القلعة لتقيم مع أبنائه في البيت الكبير بالمعادي، ثم مات عنها، فأبعدها الأبناء، بالتراضي، إلى تلك الشقة النائية، فعاشت فيها بمفردها على معاشها الضئيل، ومساعدات أبناء زوجها التي يجودون بها كل فترة. وكانت رحلتنا تلك هي إحدى مرات الجود تلك.

وصلنا إلى بيت قديم بلون أصفر كالح من ثلاثة طوابق صعدناها للدور الأخير على سلم عالٍ. فتحت لنا الباب، ولم تكن عجوزاً كما تخيلتها. كانت في أواخر خمسينياتها على أقصى تقدير بشعر رمادي وفي ثوب منزلي أزرق. استقبلتنا مرحبة وقالت لشريف بعتاب: توَّك ما افتكرتوني؟ ودعتنا للدخول.

كانت الشقة متسعة، أو بدت كذلك لخلوها تقريباً من الأثاث. لم يكُن بالصالة التي كنا واقفين بها سوى جسم ضخم مغطى بقماشة بيضاء متسخه، عرفت من أرجله أنه بيانو من الطراز الكبير.

استمررنا في وقفتنا وأخذت تسأله عن أمه وأخواله واحداً واحداً، وتسأل عن أبنائهم جميعاً بالاسم، بالترتيب وبإيقاع بطيء في الكلام، فتقول مثلاً: ونادية؟ فيرد شريف بجملة مقتضبة تختصر مآل الشخص المسؤول عنه، فتردف السيدة: وعايدة؟ ثم وعبد الوهاب.. وعصمت..

لمحتُ شيئاً يتحرك في أقصى ركن بالصالة الخاوية إلا من البيانو المغطى، فإذا به حمامة بيضاء تسير بحجلة الحمام المعهودة تلتقط حبّاً من الواضح إنه نُثر لها خصيصاً. لاحَظَت السيدة أن انتباهنا أنا وشريف قد انصرف إلى ذلك الطائر المسكين، فقالت: دي تبارك أختي. وجدتُ شريف يؤمِّن على كلامها كمن يعرف تلك الحقيقة مسبقاً. نادت السيدة على الحمامة وقالت: تعالي يا تبارك سلمي على الضيوف. ولدهشتي جاءت الحمامة سعياً من أقصى الغرفة كمن استجاب للنداء، وقفزت إلى كفِّها الذي مدته لها قرب الأرضية المتربة.

قالت: لقد قصصت جناحيها لئلا تهرب.. لقد حاولت أن تفعلها من قبل، لكن على من؟

إذ غادرنا قال لي شريف أن تبارك أختها قد ماتت منتحرةً بعد أن أشعلت في جسدها النار بصبّ الكيروسين على الملابس، الطريقة المفضلة لدى المنتحرات المصريات. وقال إن الغرفة التي احترقت بها تبارك ببيت القلعة القديم، قد وُجدت ملأى بحمامٍ أبيض. وقال مصدر آخر من أخواله بل كانت أرانب بيضاء. ولم يُعثر على تفسير لذلك، وقد اختلط نسيان القصة في ذاكرة العائلة بلامعقوليتها، فتحولت إلى أسطورة مسكوت عنها، لا ينفتح عنها الغطاء إلا في تلك الزيارات المتباعدة للأرملة المجنونة.

في الخامسة والثلاثين..

كانت تبكي وتضحك في نفس الوقت، وبشكل هيستيري. تذرف الدموع وتنشج وتصل حد النحيب ثم تنطلق فجأةً ضحكتها مجلجلةً من فمٍ مفتوح على اتساعه، ثم تعودُ بعد ثوان للنشيج من جديد.

اصطادتني من بين الحضور. كنا في حفل عشاء لدى سيدة تجمعني بها علاقة عمل، وكانت تلك المرأة شقيقتها. جاءت وجلست إلى جواري على أريكة صغيرة وبيدها كأس نبيذ أبيض، وقالت لي: هناك رسالةٌ لك من والدك. قلت ربما هي دعابة لم أفهمها، فأبي ميت منذ سنوات، وهو لم يكن يعرف هؤلاء الناس.

جاءت شقيقتها، صاحبة المنزل، ووقفت بجوار الأريكة وقالت لي: صدقها.. كوثر وسيطة روحية قد الدنيا.. ثم انصرفت لتهتم بباقي الضيوف. كانت هناك موسيقى جزائرية تنبعث في الخلفية، ونحو عشرة من المدعوين تفرقوا في أنحاء الصالة الواسعة وانخرطوا في أحاديث ثنائية أو ثلاثية.

سألتها وأنا أحاول إبراز عدم اندهاشي، وكما لو كان المرء يلتقي يومياً بالوسطاء الروحيين: وأين تعملين؟

قالت: في لندن. وأنا جادة أبوك يريد أن يهاتفك وأنت خطك مقفول.

ارتبكتُ و لم أدر بما أجيب، وبقيت للحظات صامتاً. فأمسكت بيدي بقوة،وتوجهت عيناها إلى نقطة على الحائط، ثم غامتا في مكان غامض. وراحت ترتعد ارتعادات خفيفة، وقالت من غيابها: أبوك هنا فعلاً ويقول لك أن تبلّغ العائلة أن يسامحوه. قلت لها ونسامحه علامَ؟ قالت: لا أعرف، هو فقط يقول لكم أن تسامحوه.

قلت لها: ومن قال لك إنه فعلاً أبي؟

أمسكت جانب صدرها الأيسر وقالت: أكان مريضاً بالقلب؟

قلت لها: نعم

قالت: يقول لك أيضاً: "أبو اليسر اللي بيظهر ساعة العسر".

وهنا بدأ ذهولي يختلط بشيء من الخوف. كان أبي يقول لي هذه العبارة عندما كنت طفلاً ألهو بجواره على السرير، ولا أعتقد أن أحدًا سيذكرها غير أمي، حتى إخوتي لم يكونوا قد ولدوا أو كانوا صغارًا وقتها.. أطلقت ضحكة مجلجلةً، ثم انخرطت في البكاء والنشيج مرة أخرى ثم رفعت رأسها إلى أعلى وغامت عيناها من جديد، وعندما عادت سألتني: هل أجهضت زوجتك قبل ذلك؟

قلت: نعم

قالت: أبوك يقول أن الجنين موجودٌ لديه وهو بخير، لقد كان ولداً وستضع زوجتك خلال أشهر ولداً آخر.

لم تكن زميلتي، شقيقة كوثر تعرف شيئًا عن حمل زوجتي، كما لم تكن تعرف، فيما أعتقد، أن أبي مات بالقلب. وبالتأكيد لم تكن تعرف قصة أبي اليسر الذي لا يظهر إلا في وقت العُسر.

ارتخت قبضتها قليلاً عن يدي، وقالت لي وقد عادت إلى حالتها الطبيعية: هناك سيدتان كانتا بجوار والدك تريدان أن تحدثانك، اعتقد أنهما جدتك وعمتك.

قلت لها: وماذا تقولان؟

قالت: همستا بأشياء لم أفسرها، لكن بإمكاني استدعائهما لك في جلسةٍ خاصة. إن أحببت فلنحدد موعداً.

قلت لها وقد بلغت إثارتي مبلغها: فليكن غداً..

قالت: جهِّز خمسمائة جنيه ثمن الجلسة..

قلت: ماذا؟!

قالت: آنا آكل عَيشاً من هذا في لندن يا حبيبي.

في الثانية والأربعين..

قلت لها إن مسعود لا يزال كما هو، يهيم وراء النساء وبلا عمل حقيقي. وإني شاهدته آخر مرة منذ شهور واقترض مني نقوداً

على نفس عادته القديمة. ضحكت برصانة، ولم تعلق. حكيت لها بالطبع عن زوجتي وإبني. وعن عملي. وعن الشعر والقصائد. عندما فجأةً التمعت عيناها بتلك اللمعة القديمة وذكرتني بنبوءتها، وكنت قد نسيتها تماما في خضم علاقتنا الشائكة والتي استمرت عاماً كاملاً بعد تلك الجلسة القديمة. فتذكرت السبعة السباتي، وأتت لي القصص المتناثرة لهؤلاء النساء في شكل مصفوفة حكيتها لها بالتوالي. كانت هيأتها قد تبدلت تماماً، اختفت فتاة التسعينيات الهيبية ذات الشعر الأشعث والبنطلون الجينز المرقع والخواتم الفضية؛ ترتدي الآن تايير بني أنيق وشعرها مُصفف بشكل مرتب، وفهمت أنها تعمل بجمعية دولية لحقوق الإنسان. وبعد الانتهاء من الحكايات، وشرب القهوة. أردت ان أتبادل معها رقمي هاتفينا. رفضت بتأدب واقترحت أن نتركها للصدف المماثلة. وإذ غادرت لمحتها من نافذة المقهى تركب سيارة كورية حديثة أدارت محركها وانطلقت في نهر شارع الدقي الصاخب.

في مدينة التلال والنهرين

استيقظتُ من نومٍ غير مريح، بفقدان لحظي ومدوٍّخ للذاكرة. وجدتني راقداً على الأرض في ظلام غرفة أجهلها. وعلى الرغم من ضوء شاحب ينبعث من مكان قريب، ظلّ الظلام ثقيلاً بفعل جهلي بأبعاد الغرفة، و لم تألفه عيناي بانقضاء الوهلة اللازمة لذلك. بقيتُ لحظات فيما يشبه العماء مع صداع حاد في الرأس..وشيئاً فشيئاً عادت لي ذاكرتي، فتبينت أين أنا، وأبصرت بالظلام الذي انقشعت حلكته بانقشاع النسيان تفاصيل الغرفة الغريبة.. نعم، أنا في بيت فتاة سودانية اسمها "سامية" بمدينة ليون في قلب فرنسا. مع كثرة تنقلاتي في الأيام الأخيرة، فقدتُ الآلية الطبيعية التي يدرك بها الإنسان مكان رقدته مع استيقاظه.

كنت قد وصلت ليون صباح اليوم، أو هو صباح الأمس على الأرجح، فقد كنا بالتأكيد قد اجتزنا فجر اليوم الجديد. ووصلت فرنسا نفسها قبلها بخمسة أيام، واستقريت بمدينة آرل الجنوبية عند مصب نهر الرون لحضور دورة تدريبية. ومضت أيامي الأولى بين الانهماك في تفاصيل الدورة، والتجول في طرقات المدينة التي يخيم عليها شبح فان جوخ، وللصدفة كان المعهد الذي نتلقى فيه الدورة

فيما مضى هو المستشفى التي قضى به الهولندي الأحمر آخر أيامه بعد أن أصابه الجنون.

في نهاية الأسبوع كان لدينا راحة ليومين من الدراسة، لنعاود استئنافها مع بداية الأسبوع التالي. فقررت أن أسافر لليون على مبعدة أربع ساعات بالقطار لأزور خالي الذي يقيم بها منذ عشرة سنوات. خالي صلاح يكبرني بعامين فقط وهو أخٌ غير شقيق لأمي، من أبيها فقط. ولظروف تاريخية ـــ لا مجال هنا لذكرها ـــ ولد هو بشرق السودان، وولدت أنا بالقاهرة.

خرجت من مبنى المعهد بآرل في فجر يوم السبت. اغلقت الباب الخشبي الضخم وراء ظهري وتذكرت مشاهد من أفلام يخرج فيها مسجونون من باب صغير في باب السجن الكبير، ويتخبطون في رحابة العالم الواسع. خرجت من كوة الباب الخشبي بمعهد فان جوخ واتجهت إلى محطة قطار المدينة عبر الطريق المحاذي لنهر الرون. يسميه الفرنسيون الرصيف. كانت ريح "الميسترال" تضرب الرصيف بصقيع قارس. كنّا في يناير، وملابسي كانت مصممة لشتاء القاهرة، وهو بمقياس فرنسا، حتى في جنوبها، يعتبر خريف دافئ، فلففت نفسي بطبقات كثيفة من تلك الملابس قيدت حركتي بشكل غير مريح؛ ومع ذلك لم اتق البرد الميسترالي كما ينبغي. ولأول مرة في حياتي، أكاد أبكي من ضراوة الطقس.

وصلتُ محطة القطار بعد مسيرة عشرين دقيقة في صباحٍ مبكر ليوم عطلة تنعدم فيه عربات الأجرة. وعلى الرصيف قابلت الدكتور صبحي، وكان أحد المشاركين معنا في الدورة التدريبية. سألني عن وجهتي فأخبرته. وسألته عن وجهته فقال لي أنه ذاهب ليزور مدينة "أفينيون" التاريخية القريبة. كنت أعرفها بسبب مهرجان دولي للمسرح يقام بها، وبسبب أغنية أطفال فرنسية تقول "على جسر أفينيون..رقصنا ورقصنا". سور لو بون دافينيون اوني دانس اوني دانسو.. لكنني لم أصدق قصة الزيارة السياحية وخمنت أن في الأمر امرأة. بالفعل نزل الدكتور صبحي من القطار في محطة أفينيون وكانت تفصلها عن آرل محطةٌ واحدة.

وصلت ليون بعد بضع ساعات قضيتها في تأمل المنظر الطبيعي لجنوب فرنسا وتتبع خيط مشوش من الأفكار ينساب مع انفلات المشاهد عبر نافذة القطار. وعلى محطة ليون، كان صلاح بانتظاري مع صديق له يدعى "حامد دنيا". قادني في سيارة بيجو صغيرة من طراز ٢٠٥ إلى مترل صلاح، بعد أن ابتاعا من الطريق وجبةً مختصرةً من شطائر هامبورجر وبطاطس مقلية. قال صلاح معتذراً عن الغذاء البسيط: سنأكل شيئاً "أي كلام" الآن لأن بانتظارنا عشاءاً فخيماً. سألته أين سيكون ذلك العشاء، رد بابتسامة غامضة أن هناك أناس متشوقون لرؤيتي هنا في ليون. قلت: ومن هم؟ أجاب بتعمد أكثر للغموض أني سأعرف فيما بعد..

بعد الطعام وتبادل الأخبار العائلية مع صلاح والتسامر معه وحامد دنيا، غفوت من الأرهاق على الأريكة. واستيقظت بعد ساعات لأجد صلاح ودنيا لا يزالان على ثرثرتهما. فاجآني بفنجان محترم من قهوة الاسبرسو القوية، وكانا في مزاج طيب كمن يتأهب للاحتفال. أوعز لي صلاح أن أقوم فاستحم وأبدل ملابسي استعداداً للعشاء المنتظر، ففعلت، تاركا فضولي يرتاح في فضاء رحب من التوقعات، وخمنتُ أيضاً أن في الموضوع امرأة.

عند خروجنا من البيت فتح صلاح خزانة صغيرة بجوار الباب، وأخرج زجاجتين من الفودكا وضعهما في حقيبة رياضية علقها على كتفه. سألته عنهما فقال: أنت تعرف عاداتنا، لا يمكننا أن نذهب بيد فارغة..

ركبنا مرة أخرى البيجو ٢٠٥ وإن قادها حامد دنيا هذه المرة. سألت صلاح هل هي سيارته أم سيارة حامد. قال لي إنها سيارة صديقة مغربية سافرت إلى باريس في مهمة عمل وستعود صباح اليوم التالي، وقد تركتها لهما إكراماً لزيارتي. كنا نعبرُ وقتها فوق جسر يقطع نهراً، لم يكن "الرون" الذي كنت اعتدت في آرل على لون مياهه الرمادية، وكنت أعرف أنه يمر بهذه المدينة أيضاً. سألت صلاح، قال لي هذا نهر "السون".. وشرح لي أن ليون هي مدينة التلال والنهرين، الرون والسون، مستغرباً أن الفرنسيين يذّكرون

الأول فيقولون" لو رون" ويؤنثون الأخير فيقولون "لا سون" وهو لا يعرف لذلك سببا.

فتحت لنا سامية باب بيتها بانحنائة تشبه انحناءة اليابانيات وابتسامة كبيرة تتقدمها. وسلمت عليَّ بقبلتين على كل خد، ولم تفعل ذلك مع صلاح أو حامد. كانت فتاةً طويلةً ذات سمرة غامقة وشعر ناعم تعقصه خلف ظهرها بربطة بدائية أنيقة. خمنت أنها من قبائل "الشايقية" أو "الجعليين" العربية التي تسكن شمال وسط السودان.

أخرج صلاح زجاجتي الفودكا من حقيبته ووضعهما على طاولة قريبة. نظرت سامية للزجاجتين وأومأت برأسها وحركة من شفتها السفلى تعبر عن إعجابها بالهدية. جلس حامد على أريكة يتابع نشرة اخبار تبث بالتلفزيون من قناة عربية بينما وقف صلاح أمام جهاز الموسيقى وأخذ يقلب في الشرائط والأسطوانات المدمجة. كان تفوح بالبيت رائحةٌ لطعام شهي.

تركت سامية صاحبينا في موقعهما ودعتني لألحق بها في المطبخ. وقفت بجوارها أمام الموقد وكانت تقلي كبدةً في زيت زيتون مع شرائح من البصل والفلفل الاخضر، وكان وهج الفرن يشي بشواء لم أستطع تحديده، فتركت لعابي يسيل بأفق توقعاتي السعيدة. أخبرتني وهي تقلب محتويات الطاسة أنها تُعد رسالة الدكتوراه في

الأدب الفرنسي من جامعة ليون. وأنّها تكسب عيشها من العمل كجليسة للعجائز وقارئة للعميان. وأردفت ضاحكةً أن زبائنها يشتكون من لهجتها في الفرنسية، وإن اعترفوا أنها أفضل من لهجة المغاربة وأفارقة جنوب الصحراء. وأخبرتني أنها قرأت روايتي التي كانت قد صدرت في القاهرة منذ عام، وأنها أعجبتها كثيراً، وأنها سعدت عندما أخبرها صلاح أني قادم لليون ورتبت هذا العشاء على شرفي.

وبينما تعد السلاطة التفتت سامية إلي، واكتسبت لهجتها نبرة الدخول في لبّ الموضوع وسألتني: ما هي شروط النشر في القاهرة وفي الدار التي نشرت روايتي بها بالذات؟ ففهمت أن في جعبتها كتاباً تبحث له عن ناشر، وأنني فضلا عن كوني كاتب يتم الاحتفاء به، مشروع زميل لها، ومرشد أمين في عالم النشر المستغلق على المبتدئين.

حملنا الأطباق، وبدأنا في رصّها على طاولة الطعام. كان صلاح وحامد قد اضطجعا على أريكة بالصالة وشرعا في التعامل مع الفودكا بعد مزجها بعصير البرتقال، واستسلما في جلستهما لنغمات سودانية تنبعث من جهاز التسجيل. سألتها من الذي يغني؟ فقالت إنه مطرب اسمه "مصطفى سيد أحمد" مات منذ وقت قريب في منفاه بالقاهرة. ابتسم صلاح وغمز بعينه مومئا إلى سامية وقال لي: مطرب الحزب الشيوعي السوداني. سألتني سامية كأنها تغير الموضوع أو كأنها تستعيد الحديث الذي كنا بصدده في المطبخ: هل صحيح تسببت

روايتك في أزمة بينك وبين العائلة؟ أخبرتها أن الأعمال الأدبية المستندة لبعض وقائع السيرة الذاتية للكاتب عادة ما تثير مثل هذه المشاكل في بلادنا، وفسرت لها السبب الحقيقي الطبقي وراء اعتراض العائلة المتستر بالدين. ضحك صلاح وقال إن هناك قصة حدثت في عائلتنا لو كتبتها سيقتلونك على الفور. سألته أي قصة يعني؟ فقال هي قصة Murder in The Shuluk house، كما كنا نسميها ونحن في المدرسة الثانوية محاكاة لعناوين روايات أجاثا كريستي. أثار كلامه فضول سامية فسألت عن القصة فقلتُ لها وقد انتعشت بعد أول كأس فودكا: أنا أحكيها لك. وبدأت بسرد وقائع القصة التي حدثت بأربعينيات القرن الماضي.

قلت موجهاً حديثي لها ولحامد الذي انتبه للكلام: "كان سليمان أحمد وعثمان عابدين وجدي لأبي أبناء خالات..كلّ منهم ابن لواحدة من ثلاث شقيقات من عائلة نوبية تعرف بعائلة "شُلُك".. كان ثلاثتهم يعيشون في القاهرة..جدي كان يعيش "في حاله" مهتما بتطوره الوظيفي وباقتناء الكتب وقراءتها، أما الآخران فقد تشاركا في امتلاك مقهى صغير بشارع معروف بوسط البلد. مقهى صغير من ذلك الطراز الذي نطلق عليه في القاهرة "بوفيه" يعتمد على تقديم المشروبات للعاملين في المحال المجاورة أكثر من اعتماده على زبائن الجلوس القليلين إجباريا بفعل ضيق مساحته.. ولكن يبدو أنه كان يكسب كثيراً.. بعد عشرة سنوات من

الشراكة.. اكتشف سليمان أحمد أن عثمان عابدين شريكه وابن خالته يغشه في إيراد المقهى..كان سليمان أحمد يمسك بوردية الليل.. وعابدين للنهار.. انتظره حتى وصل صباحاً وقد جهَّز له كل الدفاتر التي تثبت تورطه في الغش وسكينا طويلا.. وعندما لم يستطع عابدين الإنكار.. أعطاه سليمان النصل في كبده فأرداه قتيلاً على الفور.. ثم طلب الشرطة مُبلغاً عن نفسه.. وصنع فنجاناً من القهوة.. وجلس يحتسيه على جثة ابن خالته وسط بركة الدماء.. عندما وصل رجال الشرطة ورأوه على هذا الحال.. اعتقدوا أنه مختل عقليا.. لكن سليمان اعترف أنه في كامل قواه العقلية.. وأنه ارتكب جريمته مع سبق الإصرار والترصد.. حكم على سليمان بالإعدام شنقاً.. لكنه مات في زنزانته بفعل نوبة من ارتفاع السكر في الدم".

قال صلاح موجهاً حديثه لي: الجزء الآخر من القصة أنت لا تعرفه..أعني تداعيات الجريمة هناك في الجنوب..في وادي حلفا مقر العائلة. واستلم هو خيط الحكي..

قال صلاح: "أرسل جدك تلغراف من القاهرة إلى وادي حلفا يحمل الكلمات التالية.. *عثمان عابدين قُتِلَ بيد سليمان أحمد*.. وصل التلغراف إلى بيت عائلة سليمان وكانت تقطن قرية "الشيخ علي" شرق النيل بينما عائلة عابدين في غربه بقرية "الجزيرة".. لم يحسن المستلمون فهم البرقية وظنوا أن عبارة *عثمان عابدين قتل* هي متنها.. وأن عبارة *بيد سليمان أحمد* هي التوقيع أي أن سليمان هو

الراسل.. أو أنهم تعاموا عن الحقيقة غير مصدقين أن ولدهم قتل ابن خالته.. وفي الحال كان جمع من أهل "الشيخ علي" قد خرج في حالة من الفجيعة متوجهين إلى "الجزيرة" لمواساة أقاربهم من أهل القتيل..وحيث كان قد وصل تلغراف مماثل.. خلعت النساء مراكيبهن وحللن شعورهن وأخذن في النواح بالعديد وهم بعد على ظهر المركب الذي يقلهم للجزيرة.. وعلى المرسى.. كان في استقبالهم عم القتيل.. واقفاً بشموخ جبل في جلباب أبيض نظيف.. قال لهم.. ارجعوا.. ابكوا ولدكم فهو القاتل.. هنا.. باخ الموكب الجنائزي.. وارتد المعزون على أعقابهم عائدين وقد تجلت الحقيقة التي كانوا ينكرونها في دواخلهم.. كانوا مفجوعين في الاتجاهين.. وللحظات تحول عويل النساء على المركب والتعديد المغنى بالنوبية إلى نشيج مكتوم صاحبهم طوال رحلة العودة إلى الضفة الأخرى.. وسرعان ما تصاعد مرة أخرى لدى وصولهم إلى قريتهم.. وانفجر النسوة في هيستيريا جماعية من لطم للخدود وشق للصدور وإهالة التراب على الرؤوس الحسيرة.. وقد أخذن في نواح منغوم وعال بالعدودات ينعين كل شباب العائلة من الأحياء قبل الأموات.. كأنهن يقلن إن من قتل نفساً بغير حق كمن قتل الناس جميعا.. فما بالك بمن قتل ابن خالته.. مع الأخذ في الاعتبار أن نظام المجتمع النوبي التقليدي هو نظام أمومي يحتفي بعلاقات الرحم فوق علاقات العصب، وبالخؤولة فوق العمومة.."

قالت سامية إن القصة قوية، وإنها فضلت طريقتي البسيطة في الحكي على طريقة صلاح التي اتسمت بالتفلسف، ونصحتني بأن أكتبها فعلاً، وأن لا أخاف رأي العائلة..

علق حامد دنيا، وهو أيضا من وادي حلفا، أن هذه القصة تعد أول جريمة قتل معروفة في المجتمع النوبي.. وقد فسرها بتأثيرات حياة المدينة على أخلاقيات أبناء النوبة الوديعين. فضحكت سامية واعترضت قائلة "أنتم تصورون انفسكم كمجتمع من الملائكة".

بعد عدة كؤوس من الفودكا كانت أغنيات مصطفى سيد أحمد لا تزال تتردد في الخلفية. انخرط صلاح وحامد وسامية في حديث السياسة مرة أخرى. وكانوا يتناولون الشأن السوداني، ويقيّمون إجراءا أخيراً اتخذته حكومة الخرطوم الإسلامية. كان من الواضح أن حامد دنيا يناصر هذه الحكومة رغم كونه أكثرنا اقبالا على الفودكا، وبينما اتخذت سامية موقفاً يسارياً علمانياً حازماً كان صلاح يقف في منطقة وسطى تُعبر ربما عن المعارضة التقليدية السودانية. واحتدم النقاش. وارتفعت أصواتهم كعادة السودانيين والعرب جميعا إذا تحدثوا في السياسة. ولم يكن يكسر من حدة الموقف سوى تدخلي أحيانا للادلاء بتعليق يدفعهم إلى الضحك من لهجتي المصرية، التي تبدو لهم كما للعرب الآخرين لغة لا تصدر إلا عن شاشات التليفزيون. فانصرفت عن نقاشهم وتركت نفسي لكؤوس الفودكا والموسيقى، حتى...

دخلت سامية إلى الغرفة، وفتحت النافذة، فتبينت على ضوء النهار الساطع جسدي حامد وصلاح ممدين بجانبي على الأرض. استيقظا بدورهما وقد حجبا وجهيهما بأذرعهما اتقاءً لصدمة الضوء. خرجت سامية من الغرفة وعادت مرة اخرى تحمل صينية الأفطار وإبريقاً زجاجياً مليئا بالقهوة السوداء المفلترة. كان الأفطار دسماً وشهيا، مكوناً من بيض وسجق فرنسي مقليين. فأكلنا بنهم رغم الإعياء الناجم عن زجاجتي الفودكا. وبعد تناول عدة أكواب من القهوة، كنت لا أزال أشعر بالصداع الحاد فأتتني سامية بقرص من مسكن قوي وقالت إنه سيتولى الأمر.

بعد تناول الإفطار والقهوة، جاءت إلى بيت سامية فتاة اسمها "جميلة" عرفت من لهجتها أنها مغربية وتعرفت فيها على صاحبة البيجو ٢٠٥. سلمت على الجميع بقبلات على الخدين وقالت إنها جاءت لتأخذنا في جولة بالمدينة لتعرفني على معالمها. ركبنا نحن الخمسة في السيارة الصغيرة فاستبقت جميلة لي المقعد المجاور لها إكراما لوفادتي، وانحشر صلاح وحامد وسامية في المقعد الخلفي. وضعت جميلة شريطاً بجهاز التسجيل، وقالت لي "سأُسمعك شيئاً من بلدك"، وطارت بالسيارة في شوارع ليون التي كانت لا تزال تستيقظ كسلى في صباح الأحد. عرفت على الفور ضربات جيتار عمر خورشيد التي سبقت طلقات صوت فايزة أحمد: "عدينا بحورهم عدينا.. وحدفنا الموج ولا حسينا.. ولا رحنا معاهم ولا جينا.. وسيرهم مش عايزة

تسيبنا..وسيرهم مش عايزة تسيبنا". الهواء البارد يلفح وجهي من نافذة السيارة، والصداع قد تلاشى بفعل القهوة والمسكن، وتبقى من أثر الفودكا خدرٌ لذيذ وإحساس بالخفةِ والتطاير. تركت نفسي للطفو فوق المكان والزمان.

يونس في أحشاء الحوت

"يونس في أحشاء الحوت

يا أحشاءً كالتابوت

يونس حي ليس يموت"

نجيب سرور

أدخل المول من أحد أبوابه التسعة والستين. هو أكبر مول في أمريكا الشمالية، يمتد أفقياً ليحتل مساحة ثمانية مربعات سكنية. هو بمثابه حي تجاري كامل في مدينة تفتقد لهذا المفهوم. وعلى الرغم وقوعه في غربها، فهو "وسط المدينة" في مدينةٍ لا وسط لها ولا مركز.

أدخل من بابٍ يقود إلى باحة الطعام: باحة متسعة أشبه بميدان صغير تصطف على محيطه منافذ بيع المأكولات متعددة الجنسيات، وتتوسطها طاولات وكراسي لا تتبع مطعماً بعينه من هذه المطاعم؛ فقط عليك أن تساعد نفسك: تشتري الطعام من أحد المنافذ، وتأخذه على صينية بلاستيكية، ثم تجلس لتأكل على واحدة من هذه الطاولات. أربع نافورات تتوسط المساحة التي تشغلها الطاولات، تطلق ماءها في تشكيلات جمالية، و"يطرطش" رذاذها خفيفاً على الجالسين، مع خرير الماء الذي يبدو رومانتيكيا في البداية، ثم شيئا فشيئاً يتصاعد إحساسك به حتى يحتل وعيك ويفصل بين صوتك وسماعك له؛ هذا إذا خطر ببالك الكلام.

سوشي ياباني ودجاج بصلصة الترياكي مع الأرز الأبيض.. لحم على طريقة مقاطعة سيشوان الصينية بالبصل الأخضر والزنجبيل مع لفائف الربيع المحشوة بالجزر والكرنب.. حساء الجمبري على

الطريقة التايلاندية بالكرفس وشرائح البامبو.. خضروات مطهوة على طريقة مسالا الهندية للنباتيين والحلو أرز باللبن مع الحبهان.. طاجين لحم الضأن المطهو مع حبات البرقوق الأحمر على طريقة مراكش.. سجق الكلاباصا الروسي مع حساء البورتش بالزبد والكرنب.. كُرات اللحم المفروم على الطريقة السويدية مع صوص الجريفي والبطاطس المسلوقه.. فاصوليا حمراء مكسيكية مع اللحم المفروم ومعجون الأفوكادو المعروف بالجواكامولي ملفوفة في خبز التاكو من طحين الذرة.. رقائق خبز الكابد الأثيوبي مغموسة في صلصة حمراء حريفة مع نسائر من اللحم المقدد.. المعجنات الإيطالية من اللازانيا والكانيلوني وحتى البيتزا مرورا بصنوف المكرونة بمختلف الأشكال والصلصات.. سوفلاكي يوناني مع سلاطة الطماطم والبصل والخس بالجبن الأبيض.. دونير كباب تركي مع سلاطة حمص لبنانية بزيت الزيتون وحتى الفلافل المصرية الملفوفة في العيش الشامي مع الطحينة.. مع الحضور الأكيد لملوك الوجبات الجاهزة الأمريكان: دجاج كنتاكي وماكدونالدز وبورجر كينج، في عولمة حقيقية للطعام. مهاجرون هنود يأكلون طعاماً صينياً، ونسوة عرب محجبات يأكلن شاورمة تركية، ومراهقون صينيون يلتهمون البوريتوس اللاتينية. أصابني الدوار من هذا التنوع في الأطباق، ومن صوت المياه التي لا تكف عن التدفق والخرير داخل رأسي، وأعياني الأختيار؛ ذهبتُ للمطعم الإيطالي واشتريت شريحةً من البيتزا كمن يلوذ بقريب يعرفه

من بعيد وسط جمع من الأغراب، فالواحد لا [illegible]
في أمريكا الشمالية وبأيد بيضاء. كلّ طعمية لم [illegible]
السيارات لايعوَّل عليها. أخذت قطعة البيتزا وجلست [illegible] مع
الكولا على واحدة من هذه الطاولات..

بعد أن انتهيت من الطعام، خرجت من تلك الساحة، واتجهت كالمنوَّم نحو ممر تعلوه لافته تشير إلى اتجاه مدينة الملاهي. سرت في الممر وسط عشرات الأطفال، بمفردهم أو مصحوبين بذويهم. الطرقة طويلة وأنا أسير وذهني مشوّش من أثر الخرير المزعج الذي كان لا يزال يتدفق في رأسي. ما إن أخذ الصوت في الابتعاد حتى بدأ ضجيج الملاهي وألعابها في الامتزاج به؛ كلما تقدمت في السير بخطواتي البطيئة وسط زحام الأطفال، أخذ خرير المياه في التلاشي ليترك مكانه لضجيج الملاهي. لم أنتبه إلى أن الممر الذي أسير به قد تحول فجأة لما يشبه الجسر المعلق. اختفت الحوائط من جانبيه، والسقف من فوقه، لتحتل ماكينات الألعاب العملاقة الفضاء من حوله. خطوط ثعبانية لأربع مستويات من قطار السرعة تتقاطع في الهواء: واحد للأطفال تدور قضبانه على ارتفاع منخفض ويجري بسرعة معتدلة، وثان رأيت طابوراً من المراهقين يقف ببابه؛ بعد أن يلف في جولة تمهيدية حول المكان يغوص في ظلمات "نفق الحب" ليهبط في مستويات أكثر عمقاً تحت الأرض، وحيث في مرحلة ما يتحول إلى ما يشبه القارب لينهادى على سطح بحيرة صناعية في ظلام تلطفه أضواء حالمة ليسمح

للعشاق الصغار باستراق الأحضان الساخنة والقبلات. ثم قطار السرعة ذو المرتفعات والانخفاضات الحادة للكبار. وأخيراً القطار الجنوني الذي يصعد وينحدر بزوايا مرعبة وبانحناءات مفاجئة ويُشترط في راكبيه أن يكونوا من ذوي الأعصاب القوية والقلوب السليمة.

ثمة أبواب على جانبي الممر- الجسر، هي بمثابة محطات لركوب تلك القطارات، وقد اصطف الأطفال والشباب عندها في طوابير للفوز بمتعة رفع العقيرة بصراخ الاستثارة. كان كل الفضاء من حولي بأراجيحه العملاقة، وقطاراته التي يفرقع في الهواء دوي عجلاتها فوق القضبان، بالحضور الكرنفالي للأطفال والشباب، تجسيداً لروح غامضة لن أفلح في فهمها مهما استعدت خبراتي مع مدن ملاهي زرتها في بلادنا في مقتبل عمري، بل يمتد اغترابي ليبتلع تلك الفكرة نفسها؛ بأي روح يبنون رقصات للحديد وللتكنولوجيا والخيال المكرس للمتعة في مدننا البائسة؟

انتهى الجسر المعلق، وعاد الممر ممراً، إيذانا بانتهاء منطقة ماكينات الألعاب العملاقة لتبدأ منطقة الألعاب الصغيرة وقد رصت على جانبي الممشى. اثناء مروري بين تلك الألعاب ، لفت انتباهي شيءٌ يشبه ملابس رجال الفضاء تقول اللافتة فوقه بالانجليزية " Scuba Diving simulation" وترجمتها العربية "مماثلة الغوص في الأعماق". فهمت إن هذا جهاز لمحاكاة تجربة الغوص، على غرار أجهزة محاكاة الطيران، وألعاب قيادة السيارات على شاشات

الكومبيوتر. ثمة عبارة أخرى مكتوبة [illegible] الأعماق دون أن تبتل ملابسك". قلت هذه هي [illegible] الأعماق "على الناشف" يناسب متسكع من الشرق على [illegible] بروح سقيمة ومزاج قلوي ينحو باتجاه التروع الأبولوني حتى في قلب الكرنفال. وقفت للحظات أتأمل الجهاز الذي يشبه بدلة الفضاء أو بالأحرى بدلة الغوص الافتراضي: خوذة ضخمة، من الواضح أنها معدة لتحتوي شاشة عرض تواجه العينين بمشاهد الأعماق، وجسد من معدن يشبه الرصاص، وذراعين وساقين من مادة السيليكون المرن ينتهيان بقفازات وزعانف رمزية. وعلى ظهر الجسد المعدني كانت هناك أسطوانة أوكسجين تحاكي الحقيقية تماما وإن كانت أصغر حجماً. كانت التعليمات تقول إن الجهاز مزود بسماعات دقيقة تبث المؤثرات الصوتية لأعماق المحيط، وبشرائح "حاسية" sensors في منطقة الكفين والرقبة لتمرير الشعور بالوجود تحت الماء لحاسة اللمس لدى مستخدم الجهاز. ترتدى البدلة، أو تدخل داخلها بعد أن تخلع نعليك ومعطفك، وتلقم الجهاز ما قيمته أربعة دولارت من العملات. وبعد إغلاقه سيميل بك من وضعه الواقف إلى وضع أفقي، وعليك فقط أن تحرك ذراعيك وساقيك بحركة السباحة تحت الماء لتتحرك في الأعماق..رحلة سعيدة.

ألقمت الجهاز عملاته، وارتديت ذراعي وساقي السيليكون وأغلقت على نفسي بابي الخوذة والجسد المعدني. ظل الظلام داخل

تلك العلبة مطبقاً، لوهلة، ثم سمعت أزيزا وشعرت بالجهاز يميل بي في وضع الانكفاء. كان الجسد المعدني مثبتاً على محور عند منطقة الخصر يتيح له الانكفاء رقودا والاعتدال وقوفا، بينما ذراعاي وساقاي تتحركان بحرية داخل الأكمام المطاطية.

بدأتُ الرحلة بسماعي لوشيش خافت وأصوات مكتومة مسجلة تحت الماء عبر سماعات للصوت المجسم، ثم أضيئت الشاشة أمام عيني، وكانت تلتف بتقوس حول الوجه وعلى مسافة مضبوطة من العينين لتتيح مشاهدة بمائة وثمانين درجة. كنت تماماً كمن يتطلع من خلال قناع غطس. وجدتني في مياه فيروزية بعمق غير شديد قد يصل إلى عشرة أمتار. لم تكن مشاهد الأعماق من إبداعات الجرافيك كما توقعت، بل كانت الصورة شديدة الواقعية، وأدركت من مدى نعومتها أنها مصورة بكاميرا فيديو شديدة الحساسية جرى تحويلها بعد ذلك لصورة سينمائية، لتعرض بتقنية ثلاثية الأبعاد. وبالفعل كان جسدي يشعر كما لو كان غاطساً في الماء من أثر الشرائح الحاسة على جلدي، وكان بأذني نفس تأثير الضغط المصاحب للأعماق. شاهدت أسراباً من سمك رفيع فضي تتحرك حولي، فحركت ذراعيّ وساقي وفقا للتعليمات فوجدت نفسي أتقدم في الماء، وما أثار عجبي أن الأسماك الصغيرة انفرط عقدها بمجرد ما تحركت وسطها وتبدد سربها في فوضى ليعود ليلتئم بمبعدة عني. قلت أن البرنامج الذي يعمل وفقه الجهاز شديد الذكاء حتى تستجيب المشاهد المصورة تحت الماء

لحركة شخص داخل مدينة ملاهي بأحد مولات كندا، بل ذهب فكري إلى أن تلك المشاهد قد تكون بثاً مباشراً من كاميرا مزروعة بأحد البحار، لكني آثرت التوقف عن التفكير في التقنيات لاستمتع باللعبة. أخذت أسبح بمتعة بالغة في المياة الفيروزية الضحلة، وفكرت أن أصعد لسطح الماء القريب لأرى ماسيكون. فردت ذراعيَّ ورفعت رأسي لأعلى، وأخذت أحرك قدمي بقوة، حتى وجدتني أقترب فعليا من السطح، وعندها، ظهرت جملة بالضوء الأحمر في القطاع الأسفل من الشاشة تقول: "غير مسموح بالخروج لسطح الماء.. اذهب لجهاز مماثلة السباحة في المياه المفتوحة". هالني ذلك التقسيم المرعب للعمل.. ولكني قررت أن أمضي في اللعبة حتى النهاية، وواصلت السباحة تحت الماء. رأيت سمكةً ضخمة من نوع الراي، بجسدها الأسود المفلطح كانت تشبه بساطاً مثلثاً، وزعانفها يرفان كجناحي طائر رخ يحلق بالسرعة البطيئة بمحاذاة القاع.. كان ذيلها المكهرب يثير زوابع في رمال القاع البيضاء كلما لامسها، فيتعكر صفو المياه خلفها.. رأيت قناديل البحر تتراقص في بطء كالهلام بأعداد غفيرة.. وأسراب من السردين الصغير المزرق تبرق في آشعة الشمس التي تتخلل المياه. وفجأة وجدتني بمواجهه لون أزرق غامق.. هاوية سحيقة.. اكتشفت أني كنت أسبح فوق رصيف من الشعاب المرجانية مغطى بطبقة من الرمال البيضاء، وهو ما كان يعطي المياه ذلك الصفاء الفيروزي.. وها أنا الآن في مواجهة الأعماق الحقيقية.. الزرقة القاتمة.. كان

رصيف الشعاب ينتهي كجرف تمتد الأعماق تحته لأميال. وقفت مكاني مترددا، وكأني في بحر حقيقي، للحظة، ثم أقدمت على اقتحام المجهول..

عندما غصت نازلاً بموازاة حائط الجرف المرجاني رأيت ما لا عين رأت من بهرج الأسماك الملونة، من مختلف الأحجام، فرادى وفي أسراب تتراوح بين البرتقالي ودرجات الأزرق والأخضر. ميزتُ من بينها سمكة نابليون الشهيرة.. بل رأيت قرشاً رمادياً متوسط الحجم، واقترب مني. جاء بفكه المرعب وعينيه الميتتين في مواجهتي، ثم انصرف في سلام.. كنت قرأت في مكان ما أن الأسماك تتجمع بكثرة بجوار الشعاب لوفرة الغذاء بتلك المناطق، وبالتالي وفرة الغذاء لمن يتغذون على المتغذين وفقا لقانون الأسماك الشهير.

أخذت أسبح بمحاذاة حائط الشعاب متفرجاً، أو أغطس هابطاً لمكان أعمق طلباً لتغيير المنظر. وحين تبدد سرب من أسماك صفراء بتوغلي وسطه، وجدتني أمام فتحة فاغرة بين الشعاب تقود نحو ظلام مجهول. اقتربت بحذر، وقد عرفت أن هذه هي المغارات المرجانية، الوكر المفضل لثعابين المارينا القاتلة. ولدهشتي كان هناك شعاع ضوء يخترق قلب الظلمة، فتحة ما بسقف الكهف يتسرب منها ضوء الشمس لأعماقه المرعبة. قدرت أن هذه الفتحة تقود للمنطقة الضحلة ذات المياه الفيروزية فوق الرصيف المرجاني. تشجعت محتمياً ببدلتي المعدنية وبوضعي الافتراضي، وقررت اقتحام الكهف، والمروق من

الفتحة بسقفه للجهة الأخرى. وفي ذهني مكان دارس بشط الاسكندرية كان يعرف ببئر مسعود. كان بئر مسعود حفرة في الصخور عند شاطئ ميامي موصولة بالبحر عبر نفق تحتي. وكان الشباب في سبعينيات القرن الماضي يتبارون في القفز بالبئر، ثم عبور النفق والطفو من جهة البحر. أخذت أتقدم سباحةً داخل الكهف متوجهاً نحو طاقة الضوء. لم تكن مسافة هينة، لكن انبثاق النور في العتمة خلق نوعا من سوء تقدير المسافات. دقائق طوال أسبح، وأتخبط بين الحين والآخر في الشعاب، فأسمع أصداء تلك الصدمات ترديداً مفخَّما عبر السماعات. مرةً أخرى هالني ذكاء البرنامج. وحين وصلت أخيراً إلى الفتحة، اكتشفت أنها أضيق من أن تسمح لي بالعبور، وكلما حاولت المروق عبرها سمعت صفيراً متقطعاً يصدر عن السماعات كجرس إنذار. فقررت العدول عن الفكرة، ولففت عائداً باتجاه بوابة الكهف. كان الظلام كاملاً في طريق العودة. لا ترى شيئا بالفعل. وازدادت وتيرة اصطدامي بالشعاب، وصرت أسمع الصليل المكتوم للمعدن على الحجر مُضاعفاً برنين الاعماق، ومجسماً بفعل السماعات لدى كل حركة يمينا كانت أم يسار. أخذ العرق يتفصد بغزارة من كفيّ و قدميَّ داخل أغلفة السيليكون المبطنة. تساءلت: هل انقلبت اللعبة إلى جد؟ وشعرت بالتيه المدوخ في الظلام، وربما أصبت بدوار حقيقي. توقفت لالتقط أنفاسي وأستجمع أفكاري، فانطلقت عندها صفارات الإنذار، بصوت أعلى هذه المرة. وظهرت

أسفل الشاشة عبارة بالضوء الأحمر تقول: "الأوكسجين على وشك النفاد.. سارع بالخروج من جهاز المماثلة". ويبدو إنني قد نسيت أن أتعلم طريقة فتح هذه البدلة المعدنية من الداخل.

الرُسُــل

قبل أن يموت أبي بشهرين ماتت ابنة خاله. كانت امرأةً تقاربه في السن، وتزامله في المثول تحت وطأة مرضٍ عضال، هي بكبدها أما هو فبالقلب. لم يكن يمر يوم دون أن يهاتف أحدهما الآخر ليطمئن على أحواله الصحية، أو بالأحرى ليطمئن على حياته. وكأن كل منهما يستمد من بقاء الآخر على قيد الحياة بصيصاً من أمل على رصيده هو الباقي.

و عندما ماتت السيدة فجع أبي. فجع في حياته هو، ودخل في كدرٍ شديد؛ حتى إنه لم يذهب إلى المأتم الذي أقيم لها ــ بالرغم من استطاعته ــ تاركاً حالته الصحية وكونه صاحب مرض حجة ظاهرة لتغيبه. بينما حقيقة كونه التالي في الترتيب العائلي من الموت قد أعفته أمام نفسه من كل المسئوليات، سوى مسئولية الغم وانتظار النهاية. وفي صباح اليوم التالي للمأتم، جاء أشقاؤها الثلاثة ليقدموا له هو واجب العزاء، في جلابيبهم الصعيدية الضافية وعمائم مهيبة. جاءوا ليقدموا له عزاءاً من المفروض أن يذهب إليهم به. كان الوضع مقلوباً، وفي مقلوبيته تكمن كل قسوة الصراحة. وكأنهم في زيارتهم رسلٌ يحملون رسالةً لا حاجة إلى فض مظاريفها، وقد ختم الموت عليها بخاتمه الأسود.

ترتيب الأرفف

حلمت أني عُدْتُ إلى مدرستي القديمة..

ليس في الأمر جديد، فكثيرٌ من الناس ـــ على الأقل ممن تلقّوا تعليماً في مدارس ـــ يحلمون بأنهم عادوا، وهم كبار إلى المدارس التي ترددوا عليها صغارا. وعادةً ما تتواتر مثل هذه الأحلام على الناس في فترات القلق، ولاسيما ذلك الحلم المتكرر بالمثول أمام لجنة امتحان صعب. أو بالتأخر عن الوصول إلى الامتحان، أو الحلم بأنك ذهبت إلى المدرسة عارياً، لتقضي يوم الدراسة الحلمي في محاولة خداع الآخرين بأنك ترتدي مثلهم الملابس أو في محاولات يائسة لستر العُري.

لكن حلمي بالمدرسة هذه المرة كان واقعياً في جانب منه. كنت في الحلم كبيراً، في عمري الحالي، وكنت أحاول إقناع الإدارة بقبولي في المدرسة مرةً أخرى، ولو بصيغة انتساب أو استماع، كما في الجامعات، وفي نيتي أن أستعيد الزمن القديم لأصحح خطأً ما حدث في الماضي. وكان العام الدراسي على الأبواب في الحلم، كما في سبتمبر ٢٠٠٨ الواقعي.

ماتم تهويمه في الحلم، أو قل ماتم "كلفتته" هو: هل كنت سألتحق، بعد موافقة الإدارة العسيرة، وقد حصلت عليها، بنفس دفعتي الدراسية، أم بدفعة حديثة من مراهقين أكون في وسطهم كالعم الخائب؟ انتهى الحلم قبل أن توضع إجابةٌ على هذا السؤال الذي لم أطرحه على نفسي أثناءه. ولكن الغرض الأساسي والذي من أجله ذهبت إلى المدرسة يفترض أنني سألتحق بالمدرسة مجدداً مع نفس الدفعة لأصحح ذلك الخطأ المزعوم الذي وقع في الماضي، والذي يبدو أنه طبع حياتي من بعده بما يشبه اللعنة أو الوصمة أو على أقل تقدير، نوع من سوء الحظ الذي كان يمكن تجنبه.

في تلك "الكلفتة" تكمن حلمية الحلم؛ فالتفاصيل التي تسبق طرح هذا السؤال، كلها، بإمكانها أن تتحقق في الواقع: فبإمكانك أن تذهب فعلاً وأنت كبير إلى مدرستك القديمة، وتقنع إدارتها بأن يقبلوا التحاقك مرةً أخرى تحت أي مسمى، وقد يقبلون فعلاً في نظم تعليمية متسامحة، وبعد أن تدفع لهم بالطبع الرسوم الواجبة. لكن أن تعود بعمرك الكبير لتلتحق في الزمن القديم ذاته، ومع نفس الزملاء القدامى، فهنا قد تَدَخل منطق اللامعقول الخاص بالأحلام ليقصَّ عمراً انقضى، ويصل زمنين متباعدين، ويحرك إرادات متعددة لصالح رغبة غامضة لتلميذ قديم يحلم.

كمن يمزج الأسمنت بقليل من الجبس تقول الدكتورة سلوان طبيبتي النفسية وهي تمزج مدرستي الرخاوي وعكاشة المصريتين

بشيء من الفرويدية ليكون خطابها العلمي أكثر تماسكا: إن الحلم يحتوي على رموز تمثل أحداث أو معضلات مرت في حياتك على فترات متباعدة، لكنها قد ترد متجاورة في الحلم على هيئة هذه الرموز ليستطيع مستوى ما، غير واع تماماً من عقلك، أن يفك تلك الشفرة، فيساعد جهازك النفسي على تجاوز تلك المعضلات.

تأملتني ملياً من خلف نظارتها وهي تنقل قلمها بين أصابعها وشفتيها على هيئة سيجارة وقالت: أحلامك نفسها شديدة الدلالة في هذا السياق.. وذكرتني بحلم قديم كنت قد رويته لها، وفيه كنت قد حصلتُ عن طريق الصدفة على شريط تسجيل يحتوي على ثماني أغنيات بواقع أربعة على كل وجه هي الأغاني الأقرب إلى قلبي على مدار عمري. كان الشريط نفسه من نوع شديد الجودة، مصنوع من بلاستيك أسود في غير لمعة بلون وملمس يقارب خشب الأبنوس. كانت أغلب الأغنيات الموجودة بهذ الشريط وربما كلها موجودة بالفعل في مكتبتي، لكنها موزعة على شرائط متعددة طواها النسيان بين الأرفف والغبار.. وكان العثور على هذا الشريط في الحلم بمثابة استرداد لقيمة مفقودة، أو قل مبعثرة.. ولست أدري هل حدث في الحلم نفسه، أم في حلم لاحق أني فقدت الشريط في النهاية، واستيقظت وأنا أقلب بين الأرفف باحثاً عنه. وكنت مقتنعا في صحوي، وربما لا زلت، أن ذلك الشريط الأبنوسي وجِدَ بين يدي ذات يوم..

قالت: هل تذكر..كنت أعالجك من الاكتئاب وقتها.. وكان لديك إحساس أن حياتك تتبدد.. وأنك تفقد أصدقاءك الواحد تلو الآخر، لكنك لم تفقد سوى الشريط في الحلم وبضعة عشرات من جنيهات راتبك القليل على جلسات العلاج وأقراص البروزاك..

وواصلتُ الحكي. كانت الدكتورة سلوان تقطع الغرفة جيئةً وذهاباً وهي تستمع لي. قلت لها إني خرجت من المدرسة في الحلم، وذهبت لأجلس بمقهى مجاور، وطلبت زجاجةً مثلجة من مشروب "سينالكو" المنقرض، كما كنت أفعل في صباي بالثمانينيات، وأخذت أتأمل التلاميذ المتسكعين بالمنطقة كمن يتأمل ماضيه. وسألتها مجدداً عن دلالة ذلك.

قالت : العودة إلى مكان قديم هي فكرة جوهرية في حياتك وفي كتابتك.. ألم تكتب مرة قصيدةً عن مراهقين عادوا وبشكل قدري لمكان ارتكبوا فيه حماقةً عنيفة.. وتلك القصيدة الأخرى عن شخص يشعر بالتورط في جريمة حدثت قبل أن يولد فيذهب لمسرحها كشريك قديم.. بداخلك شعور عميق بالذنب تجاه أمر مجهول.. وهو نوع غريب من الشعور بالذنب لا يخامره الندم..كأنك تلوم نفسك وتتواطأ معها في نفس الوقت..

عادت الدكتورة سلوان وجلست على مكتبها، وخطت شيئاً بالقلم في دفترها، وقالت إن الأمور كما تبدو لها ليست سيئة، وإن

علي أن أبدأ بالكف عن تعاطي دواء القلق تدريجياً.. وحددت موعد الزيارة التالية في الشهر القادم.

عدت سيراً على الأقدام من الزمالك حيث عيادة الدكتورة سلوان، إلى مقر عملي بمبنى الإذاعة والتلفزيون على كورنيش النيل في ماسبيرو. في هذا المساء، كانت نسائم خريفية لطيفة تهب من جهة الشمال فوق النهر وأنا سائر على "كوبري مايو" أفكر بكلام الدكتورة حول طريقة الذهن في معالجة نفسه عن طريق الأحلام، وخطر ببالي بيت "فإن كواني الهوى وطارَا..كانت رياحُ الدجى طبيبي" من قصيدة النهر الخالد بصوت عبد الوهاب، ورحت أردده طوال الطريق جهراً بصوتي تارة، وتارة بترديد اللحن فقط، أو الصفير به. وبدا لي وأنا أسير فوق الجسر أُدندنُ بهذه الأغنية، ومن حولي أضواء المدينة بانعكاساتها على "النهر الخالد" أن ثمة معنى يلف حياتي كلها في تلك اللحظة، أو كأن تطابقاً غامضاً يجري بين تصور مجرد من معاني الحياة الكبرى وحركتي الآن كمواطن يقطع الجسر ليلاً ذاهباً إلى عمله.

كانت لدي الليلة سهرةٌ في حجرة المونتاج بالدور الرابع لتوليف حلقة من برنامج"سينما المؤلف" الذي أقوم بإعداده. لم أهبط من الجسر باتجاه مبنى التلفزيون مباشرةً، لكني آثرت اختراق حي بولاق أبي العلاء لشراء بعض سندويتشات الفول والطعمية، لي وللمونتير الذي سيسهر معي، ثم دخول مبنى التلفزيون من الباب الخلفي.

كانت الحلقة التي سنعمل على مونتاجها الليلة عن المخرج الأمريكي "روبرت زيمكس". بادرني المونتير، وهو من النوع المثقف قياساً لبني مهنته: هل يُعتبَر روبرت زيمكس مخرجاً مؤلفاً؟؟ كنا قد استنفدنا في حلقات سابقة أسماء نحو دستة من المخرجين المؤلفين: من الكاهن السويدي، للرسول الروسي، للسحرة الطليان الثلاثة، للسوريالي القطالوني، لأرباب الموجة الجديدة في فرنسا، مرورا بتيار السينما النقدية في أمريكا؛ حتى نفدت سبل الحصول على مادة فيلمية لمخرجين كلما ازدادوا ايغالاً في شعرية السينما كلما صاروا أقل شهرة. قلت له إن زيمكس ليس مخرجاً مؤلفاً بالضبط، لكن المُضطر يركب الصعب، وزيمكس رغم كونه مخرجاً تجارياً بوضوح، إلا إنه كتب بنفسه أشهر أفلامه وأنجحها، أي فيلم"العودة للمستقبل" وهو فيلم شديد الإتقان بمعايير السينما التجارية.. في النهاية أفهمته أن البرنامج لابد وأن يستمر لتكتمل دورته، ولنجد قوت يومنا. وهو ما كان ليجادل، فقط يُدلي بدلوه في المادة، بدلاً من أن يعمل على مونتاجها كالحمار يحمل أسفاراً. وبالطبع، كان هو على حق.

جلسنا في البداية، وأكلنا سندوتشات الفول والطعمية، وشربنا كوبين من الشاي مع سيجارتين، على الرغم من حظر الإدارة الصارم لتناول الأطعمة والمشروبات والتدخين داخل وحدات المونتاج، وبدأنا العمل في نحو الواحدة بعد منتصف الليل. كان الشغل على الحلقة لا يحتاج إلى مجهود ذهني كبير مني، فقد أديت عملي مُسبقاً، فقط عليّ

أن أتابع رصّ ما تم تصويره وفقا لـــ"سكريبت المونتاج" الذي أعددته. مما يعني تسجيل كلام المذيعة تقرأ ما كتبته لها، ثم يلي ذلك تسجيل مقطع من فيلم. وتتكرر نفس المسالة نحو ثلاث أو أربع مرات وتكون لدينا حلقة من فئة ٣٠ دقيقة جاهزة للبث. وهو ما لا يتطلب أيضاً مهارات فائقة من المونتير، هو فقط يقص ويلصق بالمنطق القديم. كانت تقديمات المذيعة كلها مسجلة على شريط، والمقاطع من أفلام زيمكس كلها على شريط آخر، وما عليه سوى دمجهما معاً على الشريط "الماستر" أي الشريط الذي يذهب بعد عدة اجراءات بيروقراطية ـــ لوحدة البث.

الفيلمان الأساسيان اللذان تناولتهما في الحلقة هما فيلما "العودة للمستقبل" و"فورست جامب". في الفيلم الأول يلعب الممثل الكندي ذو البيبي فيس "مايكل جي فوكس" دور تلميذ مراهق في ثمانينيات القرن الماضي يؤرقه ضعف شخصية أبيه. ويستطيع عن طريق آلة زمن اخترعها صديقه العالم المخبول، أن يرجع في الماضي إلى حقبة الخمسينيات، حين كان أبوه وأمه في مثل عمره وبنفس مرحلته الدراسية. للمصادفات المشينة، تكاد أمه أن تقع في حبه هو، وتبتعد عن طريق التلميذ الخائب الذي يُشاغلها: أباه في المستقبل. يدفعهما جي فوكس دفعا في طريق أحدهما الآخر، وإلا تهدد احتمال وجوده هو الشخصي في المستقبل في حالة فشل العلاقة. وتذوي ملامحه من صورة عائلية يحملها من زمن الثمانينات، كلما ابتعد أبوه المستقبلي

عن طريق أمه المستقبلية في زمن الخمسينيات. في أحد المشاهد يعزف جي فوكس الجيتار في حفل بمدرسة أبيه وأمه، فتأخذه الجلالة ويندمج فيسرِّع العزف حتى يقارب أسلوب الهارد روك الذي لم يكن معروفاً وقتها. يسمعه أحد العاملين السود بالمدرسة، فيسارع بالاتصال بقريبه الذي لم يكن سوى "تشاك بيري" مبتكر الروك أند رول ويخبره أنه عثر له على النغمة التي كان يبحث عنها. زائر المستقبل يُلهم المعاصرين بما سيكون طليعياً. نفس التيمة أستعملها زيمكس في فيلمه الأنجح "فورست جامب" حين جعل المشية المعاقة لفورست الطفل تلهم إلفيس بريسلي رقصته الشهيرة. أبطال زيمكس العاديون يتدخلون دون أن يشعروا في صناعة التاريخ؛ وهكذا يعود فورست من الصين بعد زيارتها كلاعب تنس طاولة في فريق المصالحة التاريخي، ليقابل جون لينون في برنامج تلفزيوني ويلهمه كلمات أغنيه "تخيل" من حيث لا يدري. وقلت إن فيلم فورست جامب هو إعادة صياغة أمريكية لرواية "كانديد" أو الساذج لفولتير: البطل النابيف الذي يطفو على سطح التاريخ كالريشة التي جعلها زيمكس في أول الفيلم تطير فوق الموجودات. وقلت إن الولايات المتحدة في القرن العشرين هي ألمانيا وفرنسا القرن الثامن عشر في تصور فولتير. كانديد وجامب مرّا بكل تقلبات عصرهما وخاضا الحروب، وأحبا امرأةً واحدة منذ البداية، ليجدا المحبوبتين في النهاية وقد تدهورتا بفعل تصاريف الزمن؛ فيعثر كانديد بعد السنين على حبيبته كونيجوند في

منفاها التركي وقد صارت قبيحةً بشعة، فيما يعثر جامب على جين حبيبته في نهاية الفيلم بعد رحلة موازية، في ولاية ثالثة وقد أصيبت بالأيدز. قال لي رامي المونتير: " لكن فولتير كان يقصد من وراء قصته توصيل الحكمة التي أوردها على لسان مؤدب كانديد في قلعة عمه بويستفاليا، تلك الحكمة القائلة إن ذلك العالم الذي نحياه هو أفضل العوالم الممكنة، وهو مالم يظهر في الفيلم إطلاقاً. مرةً أخرى يُبهرني رامي بثقافته التي لا محل لها من الإعراب، ولن أجد رداً أبلغ من أن أردد على مسامعه حكمة فولتير بفرنسية سليمة: "لو ميور ديه موند پوسيبل" متجاهلاً ملحوظته.

انتهينا من المونتاج نحو السادسة صباحاً، فتزلنا إلى الشارع شبه نائمين، وافترقنا على باب المبني، فأخذت تاكسي استلم الطريق بمحاذاة النيل لنحو ثلث الساعة حتى انحرف داخلاً صوب بيتي في المعادي. بدلت ملابسي وشربت كوباً دافئاً من الحليب واستسلمت لنوم عميق. ثم كُنت فجأةً وبدون مقدمات، مرةً أخرى في عيادة الدكتورة سلوان، أقص عليها تلك الواقعة البعيدة التي كنت قد نسيتها. كانت جالسةً أمامي على مكتبها تنصت، وكنت أقول إني خرجت من المدرسة في نهاية ذلك اليوم البعيد، في الصف الثاني الثانوي راكباً دراجتي، وقد وضعت كتبي مربوطةً على المقعد الخلفي. وفي الشارع، ما إن بلغت اول منعطف حتى وجدتهما واقفَين: خالد شقيق داليا طالب الكلية الحربية وصديقه العملاق ماجد الأبراشي.

قطعا علي الطريق وأجبراني على التوقف. وما إن نزلت من على الدراجة حتى بادرني ماجد بلكمة عنيفة في وجهي أطارت نظارتي، وجعلت أنفي يترف، ثم دفعني بكل قوته فسقطت أرضاً، فركلني خالد في جنبي وقال لي: "مش قلت لك تبعد عنها"، ورأى أصدقائي المشهد لدى خروجهم من باب المدرسة فجاءوا ركضاً؛ لكن خالد وماجد كانا قد فرا هاربين على ظهر موتوسيكل. أقامني الأصدقاء من على الأرض، واصطحبني هشام ومحمد تركي إلى بيتنا، وسحب هشام الدراجة طوال الطريق مشكورا.

قامت عندها الدكتورة سلوان من على مكتبها، وسارت حتى وصلت خلف الكرسي الذي أجلس عليه، وشعرت بيدها فوق كتفي بلمسة تعاطف مع اتكاءة ناعمة. وقالت لي تعال معي. خرجت معها من غرفة الكشف فتأبطت ذراعي، وسرنا بدهليز طويل على جانبيه أبواب موصدة ـــ و لم أكن أعرف أبداً أن عيادتها بهذا الحجم ـــ حتى دخلنا غرفة في النهاية لم تكن سوى وحدة مونتاج عملاقة. كان جهاز المونتاج الذي بها أشبه بأورغون كاتدرائية صرحية في مدينة قروسطية، ثلاث شاشات بحجم "هوم ثيتر" محترم وأزرار ذهبية وفضية على لوحات مفاتيح من خشب أسود.

أجلستني الدكتورة سلوان على مقعد وأخرجت شيئاً من حقيبتها لم يكن سوى شريط فيديو من بلاستيك يملمس يشبه خشب الابنوس، وقالت لي: سنتجاوز تلك العلقة وما تركته في نفسك من

جروح. ثم وضعت الشريط في المُشغل وضَغَطَت على زر فظهرتُ على إحدى الشاشات وأنا أسير جريحاً ممزق الملابس وسط هشام ومحمد تركي، ثم ضَغَطَت على زر آخر فتوقفت الصورة، ثم زر ثالث فأخذت الصور تتلاحق في اتجاه التراجع للخلف، وعند لحظة معينة، فرقعت الدكتورة إصبعيها وأوقفت الجهاز بحركة مفاجئة وقالت: من هنا نبدأ. ثم داست زري التشغيل والتسجيل معاً.

رأيتني في نفس يوم العلقة، ولكن في لحظة سابقة عليها، في ساعة مبكرة من ساعات اليوم المدرسي ـــ ربما كانت بعد الحصة الثانية ـــ وقد قررت "التزويغ" من المدرسة. أخذت كتبي تحت إبطي ومضيت نحو دراجتي المركونة بجوار السور، وربطتها في العارض الخشبي بالسلسلة والقفل، عازماً على أن أبيّتها الليلة في المدرسة، على أن آخذها غداً في المرواح، ثم قفزت من فوق السور، وخرجت إلى "رحابة الحياة". اشتريت علبة سجائر كليوباترا بخمسة وأربعين قرشاً، ثم ذهبت إلى مقهى "القمر السياحي" بمنطقة "الثكنات" قرب المدرسة. طلبتُ قهوةً مضبوطة، وأخرجت دفتري وقررت أن أعمل على الرواية التي أنا بصدد كتابتها: "ثقب في الرأس". كانت الرواية عن شخص يشبهني، جعلته يعيش في زمن حرب ١٩٦٧، مجنداً عائداً من الحرب بعد ست سنوات ليجد حبيبته التي تشبه داليا كثيرا قد تزوجت، فيقضي الوقت جالساً على المقهى مستشعراً أن برأسه ثقباً لا يعرف سببه. كنت افكر فيما سيفعله البطل بعد ذلك، وقد تقدم

به العمر دون أن يبدأ الحياة. عندما انتبهت لرجل في نحو الأربعين يجلس بجواري يتأملني.

ارتبكت وأغلقت دفتري عن تطفله، فوجدته يبتسم ويقول لي: اطمئن ستكون كاتباً فعلاً، لكنك لن ترى داليا ثانيةً. سألته بارتياب: من أنت وكيف عرفت ذلك؟ قال لي بابتسامته: هل نسيت الدرس القديم. قلت له: أي درس؟ قال: لو ميور ديه موند يوسيبل أفضل العوالم الممكنة. قلت له من أنت؟ قال: هنا فقط، وفي هذا الزمن الافتراضي بإمكانك أن تراني، ولوّح في وجهي بزجاجة السينالكو التي كان يشربها قائلا: في صحتك... ثم غامت الشاشة حتى أظلمت تدريجياً.

انتبهت لجسد الدكتورة سلوان الملتصق بجسدي مع إظلام الشاشة، ثم انقلب التصاقنا عناقاً حاراً وانقلبت معها على الأريكة و...

استيقظت بنشوة هائلة. كانت الساعة في تليفوني المحمول تشير إلى الواحدة ظهراً. مضت نحو ست ساعات على عودتي للمنزل. كان أول ما فعلته أن طلبت الدكتورة سلوان في التليفون وقلت لها: أريد تحديد موعد عاجل، حدثت أشياء عظيمة لا بد أن أحكيها لك. قالت لي إن عيادتها تنتهي في الحادية عشرة مساءً، وستنتظرني بعدها بعشر دقائق في المكتب. أغلقت التليفون في قمة الابتهاج، وذهبت لأصنع قهوة الصباح بالحليب وقلبي يرقص فرحاً. وفي المطبخ تسرب لي خيطٌ رفيع من الأسى: أين ذهبت دراجتي في الحقيقة؟

حلم ليلة حرب ٩
أربع دراسات لضوء النهار ١٣
إحراز الهدف ٢٣
أمثولة الكلب الأبيض ٢٩
أروي علي الهواء ٣٧
لقاءات قريبة من النوع الرابع ٤٣
في مدينة التلال والنهرين ٦٣
يونس في أحشاء الحوت ٧٧
الرسل ٨٩
ترتيب الأرفف ٩٣

طبعة خاصة تصدرها

دار الكتب خان للنشر والتوزيع©

بمناسبة مشروع مكتبة الأسرة ٢٠١٤

١/٣شارع اللاسلكي - المعادي الجديدة - ١١٧٤٢ - القاهرة

تليفون : ٢٥١٩٤٨٠٧ ٢٠٢+

البريد الالكتروني : info@kotobkhan.com

الموقع الالكتروني : www.kotobkhan.com

أدب

تعنى بنشر النصوص المتميزة فى الشعر والنثر والنقد الأدبى وتاريخ الآداب من أجل إثراء خبرة القارئ وتنمية وعيه الأدبى والسعى إلى نشر القيم الجمالية التى تحقق المتعة والفائدة فى آن.

يونس فى أحشاء الحوت (مجموعة قصصية)

تطوف قصص هذه المجموعة بعوالم تتسم بالتباعد الشديد، وتتنوع بين عالم الواقع وعالم الخيال، وبين الوجود الملموس والوجود الافتراضى، وتمر بأحوال متباينة، بين حال اليقظة وحال الحلم، كما تقع أحداثها بين أماكن متباعدة، بين الشرق والغرب، الأحياء الراقية والمناطق المهمشة، وتنتقل بين أزمنة متفاوتة لساردها، مرورا بعهود صباه وحداثته ثم شبابه وصولا لمرحلة نضجه، وتعاين مستجدات الحداثة التقنية ومظاهر العولمة المادية والرقمية، فى لغة شعرية محملة بطاقة رمزية تصل فى قصة "يونس فى أحشاء الحوت" إلى حد الأمثولة، فالإنسان فى عالم كوكبى مثل، يونس فى أحشاء الحوت، تمتاز الجمل بسرعة إيقاعها ويغلب عليها القصر لتتدفق فى انسيابية وطلاقة، فلا تعطل شعرية اللغة درامية السرد.

ياسر عبد اللطيف

ولد بمدينة القاهرة عام١٩٦٩، وتخرج فى كلية الآداب قسم الفلسفة، مارس الإبداع فى أجناس أدبية متنوعة، حيث بدأ شاعرا يكتب قصيدة النثر فى تسعينيات القرن الماضى، فأصدر فى عام ١٩٩٥ ديوانه الأول "ناس وأحجار"، ثم أصدر فى ٢٠٠٩ ديوانه الثانى "جولة ليلية"، ثم انتقل لكتابة الرواية فى ٢٠٠٢ رواية "قانون الوراثة"، حتى انتقل لكتابة القصة فأصدر فى ٢٠١١ مجموعته "يونس فى أحشاء الحوت" التى فازت بجائزة ساويرس للقصة فى ٢٠١٣ التى سبق أن فاز بها فى ٢٠٠٥، كما كتب السيناريو لأكثر من فيلم تسجيلى.

ISBN# 9789774488054

6 221149 032194

جنيهان

مكتبة ٢٠١٤